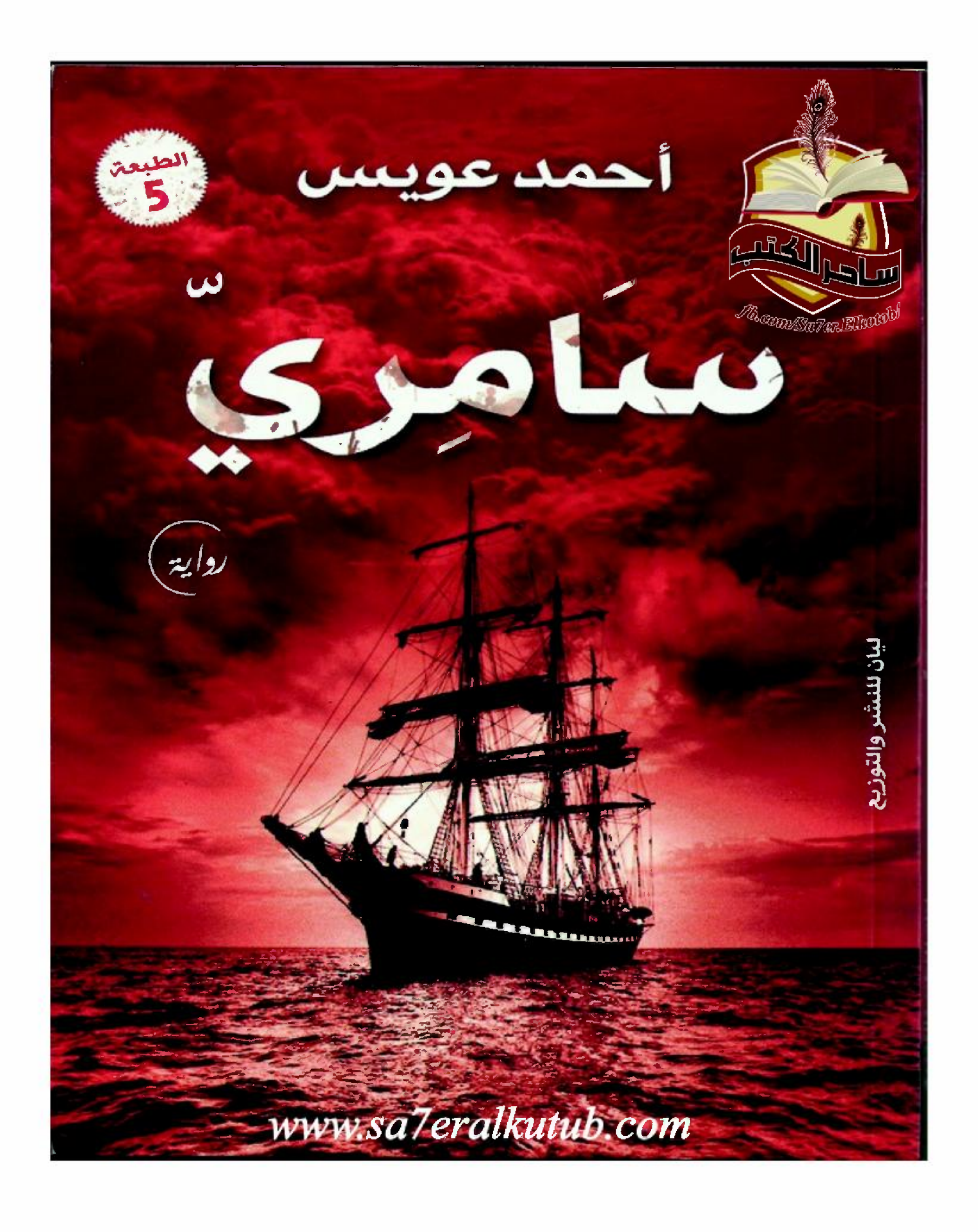

الطبعة
5
أحمد عويس
ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob/
سَامِري
رواية
ليان للنشر والتوزيع
www.sa7eralkutub.com

ســـامِـــــرِيّ

أحمد عويس

اسم الكتاب: سامريّ

اسم الكاتب: أحمد عويس

تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي

مراجعة لغوية : سارة صلاح

رقم الإيداع: 2015/11438

الترقيم الدولي: 978-977-6441-91-7

الإشراف العام ومدير قسم النشر	مدير التوزيع
فتحي المزين	منال المزين
01282288058	01270982908



العنوان: 6شارع التحرير بالدقي، بجوار محطة مترو البحوث، الدور 19، شقة رقم2002.

البريدالإلكتروني:

layanpub@gmail.coml- layanpub@yahoo.com

سَامِـــــرِيّ

رواية

أحمد عويس



إهداء

إلى أمي رحمها الله.. لعلّك الآن عنّي راضية

إلى أبي.. تحملتني كثيرًا وهذه الرواية هي شكري لك

إلى أصدقائي.. شكرًا لكم، لولاكم لما أصبحت (أنا) كما يجب أن أكون..

ولكم..

اقرأوني كي تعرفوني

- 1 -

أنا ابن النار.. الموعود بالهلاك ..

أنا الماضي والحاضر والمستقبل..

باقٍ مادامت الدنيا.. وتنتهي هي وذِكري مازال في الأذهان

أنا ابن الغد الموعود بغضب الرب وابن اليومِ الذي أساء الاختيار ..

نعم.. أنا هو ..

أنا هو ..

* * *

- 2 -

هل تؤمن بنظرية المؤامرة؟

أظنك ستؤمن بها بعد أن أفرغ منك.. بل أظنك ستذهب إلى أبعد من ذلك بكثير..

ليس إلى ما ذهبت أنا إليه بالطبع، فأنا لي وضع مختلف.. بل أكثر من مختلف فأنا لو تعلم حقًّا ما هي حقيقتي لتهيبَتْ مني نفسك وسقطت أمامي جاثيًا..

ولكن ليس هذا أوان الرعب مني وإن كان أوان الرعب صار قريبًا.. قريبًا جدًّا بل أقرب مما تظن ..

فأنا هنالك بعيدًا مع صديقي ساكن البرمود البعيد.. المغضوب عليه والمطرود مثلي من رحمة الله.. هناك بدأنا فعلًا في مؤامرتنا الكبرى والتي لا يستطيع أحدٌ أن يوقفها ..

تلك المؤامرة التي كلما تكلم عنها أحد نبذناه وشككنا فيه الناس أو القى به عملاؤنا في غيبات السجون أو المعتقلات أو في بطون القبور.. أو جعلنا منه مجذوبًا ورمينا به في عنابر المجانين ..

ماذا؟

هل التبس عليك الأمر..

هل تداخلت التواريخ؟؟

هل فقدت الأمور ترابطها وصار الأمر أشبه بأحد قصص الخيال العلمي؟

ليس بعد يا صديقي لا تفقد صبرك.. فما سوف تسمعه مني سوف يريك كم أنَّ كل الأمور من حولك خادعة وخائنة وأني أنا من يحيط بك من أمامك ومن خلفك ..

وستعلم كم أنت أحمق..

ولذا إذا ما وجدت في حكايتي أشياءً تعرفها أو أماكن قد جلست فيها من قبل.. أو حتى أسماء لأشخاص سمعت عنهم أو عاصرتهم فلا تدّعي أنه تشابُه أسماء.. وإذا وجدت اسمك فاعلم أنك أنت المقصود ..

والآن دعني أسألك من جديد:

هل تؤمن بنظرية المؤامرة؟؟

***

- 3 -

أقسم أمامكم بنفسي - فلا أعظم مني عندي - أن كل كلمة أقولها هنا هي صحيحة، وأنكم سوف تجدونها عندكم في كتبكم وفي تاريخكم وفي الصحائف التي أملاها النبي إبراهيم على "ازاد بن حارم بن صافور".. وخبأتها عائلة بالقدس توارثتها عبر الأجيال حتى يومكم هذا.. حتى صارت مع آخر نسل هذه العائلة مع حارسها "أبو باسل عز الدين نور".. والذي قلبت عليه البلاد لأقتله وأحصل على هذه المخطوطات – فهي الدليل الوحيد على وجودي- فلم أجده.. وعلمت أن هذا ليس اسمه الحقيقي وأن "ازاد بن حارم بن صافور" وأبناءه أقسموا أن يحموا المخطوطات مني منذ أيام النبي إبراهيم وحتى يحين وقتي ويهل زمني.. فهم وأنا نحيا بأسماء غير التي ندّعيها، ولكن ببعض التمحيص ستستطيعون الربط بين الأشياء وبيننا !!

ولدت في مدينة "السامرة" بأورشليم والتي صارت عاصمة اليهود بعد موت الملك سليمان.. وهي مدينة قديمة يعود تاريخها إلى سام ابن النبي نوح صاحب الطوفان؛ فسام هو الذي بناها واستقر بها بعد الطوفان وأعطاها

اسمه فكانت "سام" على اسمه ثم (ره) والتي تعني بالعبرانية القديمة (مدينة) ومن تلك المدينة القديمة كان اسمي الذي اشتهرت به (السامري)..

أما عن تاريخ مولدي فهو قبل مولد النبي موسى بما يقرب من قرن ..

كان أبي شيخًا كبيرًا طويلًا قويًا سمينًا، وأمي قصيرة بدينة عظيمة الفخذين، تزوجا من ثلاثين عامًا ولم يولد لهما طفل.

وكانا وثنيين في قرية وثنية تعبد البقر، وفي كل بيت يوجد تمثال لبقرة كبيرة يضع عندها الناس قرابينهم فيأتي ساكن البرمود القديم- صديقي فيما بعد- ليأخذها فيزدادون إيمانًا بآلهتم وبأنها ترضى عن ما قدموا..

وفي ذلك البلد الكفور الغارق في الملذات والزنا واللواط الذي يحكمه حاكم إله.. وحيث يعبدون تماثيل البقر، كان ما حدث..

ليلة سوداء لا قمر فيها، تستطيع أن تسمع فيها تأوّهات الغواني وأصوات الموسيقى الماجنة وسترصد أذناك تقارع الكوؤس، في هذه الليلة كانت أمي حيضًا وأبي عائدًا من سهرته سكرانًا متطوحًا..

ارتمى بمجونه أمام الإله البقرة في صحن البيت ونادى:

- يا إلهي العظيم.. يا من نقدِّم لك القرابين.. ونسجد عند أعتابك خاشعين.. أصبحت شيخًا مسنًّا وزوجتي عاقر.. فهِب لي من لدنك وليًّا.. يرثني – ثم سقط فتقيأ دمًا –

عندها ناداه تمثال الإله بصوته الرخيم :

- لقد سمعنا الدعاء.. فادخل إلى زوجتك فواقعها في حيضها يكن لك ما تشاء ..!!!

قام أبي مترنحًا مذهولًا يتساءل من أين أتى الصوت..

فلم تكن من قبل هنالك أي سوابق لشيء كهذا.. ولكن لحق به سكره فألجمه واتجه من فوره إلى أمي فباشرها في حيضها.. فكنت أنا .

زاد إيمان أبي بربه؛ فمع كل نظرة يلقيها على جسد أمي الضخم الذي زاده الحمل بي قبحًا، شكر إلهه وقدَّم إليه القرابين وارتمى عند أعتابه ضارعًا ..

وكان يشيع في كل وقت وهو في مجالس الشراب بالقرية كيف أن تمثال البقرة كلمه وأعطاه ما تمناه ..

وبالطبع كانوا يرمونه بالجنون ويرمون أمي بالزنا فيَّ !!

مرت الشهور بطيئة وأمي تشعر بثقل بالغ وبخوف مبهم.. وتهاجمها الكوابيس بلا هوادة.. حتى إنها زعمت أنها لم تنم قَط منذ حملت فيَّ..

كم من مرة فكرت في أن تطعن تلك البطن بسكين.. كم من مرة سمعت من ناداها: "إنكِ تحملين في أشر الناس.. فأنت شر أمٍّ لشر لخلق الله .."

كم صارحت أبي بذلك فلكمها أو صفعها وحذرها من يلحق بي أي أذى وإلا فالموت عقابها الوحيد !!

صرخت أمي – والتي لم تكن على بِر ولا خير من قبل ولم ير عليها سابقة إيمان – صرخت :

- إني أحمل بطفل شيطاني أشعر بذلك –وقالت مخاطبة أبي – أعلم أنه سيكون أضر شيئًا لي ولك..

كان الحمل هو حديث المدينة ومحور تخاريف القرية الماجنة حتى وصل الأمر إلى الملك الإله والذي أقلقه الخبر.. فطلب أن يأتوه بأبي.. فأتاه صاغرًا..

وبعد ليلتين في سجن الملك، عاد أبي مكسر العظام صامتًا، ومن بعدها لم يسمعه أحد بالمدينة يتحدث عن معجزة حمل أمي فيَّ ولا عن تكليم الإله له.





- 4 -

ووُلِدتُ ..

وكان أول ما سمعته في تلك الليلة اللعينة هو صراخ أمي.. وأول وجه هو وجه القابلة المذعور.. وهي تحدق في خلقتي باشمئزاز وتحملني في تأفف لتلقي بي بين يدي أمي لتفر بعدها هاربة حتى دون أن تأخذ أجرها..

تلقاها أبي خارج الحجرة المظلمة أمام صحن الدار -حيث يقبع تمثال البقرة الإله - متسائلًا..

فإذا بها تتمتم في فزع :

- إنها لعنة.. إنها لعنة.. إنها نطفة شيطان ..

أمسك بها أبي مفزوعًا وهو يهزّها خائفًا:

- ماذا تقولين يا امرأة؟ ماذا تقصدين؟

هربت من بين يديه وهرولت خارجة وكأن شياطين الجحيم تطاردها، وبخطوات مرتجفة تقدَّم أبي نحو باب الغرفة، وعلى ضوء المشعل الخافت رأى أمي ملتصقة إلى الجدار تنتحب ورآني ملقى بلا غطاء على أرض الغرفة..

مدَّ يده والتقط المشعل وقرَّبه من وجهي ثم ارتد صعقًا ..

صوت بكاء أمي ونحيبها اختلط بشهقة أبي الفزعة حين رأى وجهي ..

مولود معيب العينين مشوَّه الخلقة.. دميم، لا ترى على جمال المولودين حديثًا، مقبضًا، مخيفًا.

إحدى عيني بلا لون والأخرى بارزة معيبة ..

كان صوت أمي أول ما قطع الصمت الفزع ..:

- أرأيت؟ .. هذا ما خبرت عنه..

نظر إليها أبي بقسوة وقال :

- اصمتِ يا امرأة.. هو ابني أيًّا كانت خلقته.. حتى ولو كان الشيطان ذاته ..

ولم يكن يدري أن الشيطان ذاته كان مجاورًا لي في تلك الليلة وعلى يديه نزلت.. وكانت أول نفخة في وجهي نفخته، وأول كلمة سمعتها كلمته.

"أنا منك وأنت مني.. أنا لك وأنت لي.. سأنتظرك هنا حتى تجيء ويحين موعدك.. سأنتظرك هناك في البرمود القديم .."

وببطء حملني أبي، واتجه بي إلى صحن الدار ورفعني أمام تمثال البقرة وهتف مغاليًا في الدعاء :

- إلهي.. كما وهبتني إياه.. أنا أهبك إياه.. هو لك وأنت له..



فكانت تلك موعدتي وكان ذلك حظي ..

وكان لتمثال البقرة معي حكايات وحكايات ..

فأنا منه وهو لي..

وبدأت القصة..

***

- 5 -

لم أكن أبكي، وكأن لم يكن لي صوتٌ قَط، ولا أتحرك وكأني جثة هامدة..

تحملني أمي بعد أن خفَّ جزعها مني وتغلبت عاطفة الأمومة على مشاعر الاشمئزاز التي ملأت عينيها ..

وكلما حملتني أحستني ثقيلًا رغم نحافتي المفرطة، تهزني لأتحرك- كما يفعل الرضع في مثل سني-.. أو أبكي أو أبتسم.. أو حتى أفتح عيني الوحيدة العوراء البائسة.. ولكن لا شيء يحدث..

دائمًا ملقى على ظهري واجمًا شاخصًا بلا صوت ولا حراك ..

تلقمني ثديها فلا أفتح فمي.. تدفعه دفعًا في فمي فلا أطعم إلا قليلًا جدًّا..

ثم أغط في النوم ..

وفي نومي أرى وأسمع وكأني لست بنائم..

أوجست أمي مني خيفة وهرعت إلى أبي :

- -إنه لا يتحرك، لا يأكل كمن في سنِّه،لا يفتح عينه إلا قليلًا، افعل شيئًا.

وأبي كما هو مع خمره وأصدقائه يروي النوادر ويعاشر الرجال مثله مثل جميع الرجال والنساء في السامرة.. هم جميعًا أهل زنا ولواط..

يهز أبي كتفيه ثم ينتزع يديه من حول صديقه المخنث وينظر ناحية التمثال القابع في صحن الدار :

- هو لك فافعل ما شئت..

ويعود إلى ما كان عليه..

أمي نفسها بعد بضعة أيام تناستنى وكأنها وهبتني إلى المجهول وعادت لتشارك أبي مجونه وشذوذه.. بل وتمادت هي في شذوذها وكأنها تعوِّض تلك الأيام التي قضتها بجواري تحاول أن تلعب دور الأم مع طفلها المنبوذ القابع دون حراك ..

شهور طويلة وأنا في حالي هذا.. حتى كان يوم ..

استيقظ أبي على صراخ أمي وهي تنتفض في فراشها كأنها تختنق محاولة تمزيق ملابسها من على صدرها.. ارتاع أبي، نادى عليها.. ووضع أذنه على صدرها أحس بنبضها ضعيفًا وكأنه قادم من بئر سحيق.

ومع ضربات أمي على صدرها ومحاولة أبي اكتشاف ما يحدث، انكشف صدرها عن ثديين متورمين.. أحمري اللون وكأنهما يتحرقان ..

وما هي إلا دقائق معدودة وسكن الجسد المتأرق.. وتوقفت انتفاضاته وصار بلا حياة ..

قال الكاهن في المعبد العظيم لأبي:

- إنها ماتت لاحتباس اللبن في ثديها، ثم أردف: إن في بيتك شرًّا عظيمًا.

نظر إلى بين يدي والدي وأشاح بوجهه مشمئزًا وقال :

- أمازال لا يتحرك؟

- لا.. الآن يحرِّك يديه.. يشخص لأعلى ولا يأكل إلا قليلًا.. ولكن قدميه على حالهما.. وكأنه مشلول.. ينام معظم الوقت.. ولا صوت له..

وسار أبي إلى تمثال البقرة في جوف المعبد وقال وهو يشخص ببصره نحوه :

- سيدي.. هل هو غضب الألهة على ولدي؟

وكان الكاهن يرمي البخور على الحطب الملتهب في أحد جوانب المعبد الكئيب، فارتعشت يده للحظة ثم نظر إليه وقال :

- أي إله تقصد؟ إن لي خمسين عامًا كاهنًا هنا ولم أرَ من هذا الإله غضبًا ولا نعمة !!!!

- ماذا؟ ؟؟

- انذر نذرًا .

خرج أبي يحملني وقد قاربت سني على العام.. ولم يشغل باله مطلقًا بما قال الكاهن وبينما نحن في صحن الدار بعد أسبوع، جاءت إحدى عاهرات أبي وقالت:

- أطعِمه لبن الماعز، ودعنا نتضاجع بين يدي الهنا العظيم لعله يسعد بما يرى منا .

وضعاني أرضًا وبينما هما يتضاجعان رأيت شيئًا عجيبًا ..

رأيت وجهًا أسود قبيحًا على جسدٍ ضخم محدودب، ويدين تكسوهما الشعر، امتدتا اليدان نحوي فحملتاني فصرت كأني طائر، وبينما هذا يجري، رفع أبي ومن معه رأسيهما فرأيا ما يحدث..

وكأنما توقف الزمن لبرهة وأنا طائر في الهواء متجهًا نحو تمثال الإله البقرة بين يدي ذلك المسخ -الذي صار صديقي وحليفي بعد زمن طويل من تلك الحادثة-

واستقر جسدي بين رجلي البقرة، وانتفض أبي واقفًا عاريًا وكذلك عاهرته، واندفع نحو الإله ومايزال جسده يقطر عرق المواقعة الدنس وسجد أمامه.. لا بل أمامي.. نعم لقد سجد أمامي وكذلك فعلت العاهرة وهي تغطي ثدييها بكلتا يديها.

وأمامي أنا ..الطفل الميت الحي.. أعور العين ..

سجد الجسدان العاريان ..

بعدها كثرٌ سوف يسجدون .

* * *

- 6 -



هل فكر أحدكم كيف كان العالم سوف يبدو دون الوهم؟

كان سيبدو تافهًا هلاميًا لا معنى له.. فالقبح والجمال والحقيقة والمحال وكل حقائق الحياة وتخاريفها هي محض وهم؛ فمن الوهم وُجِدَنا وفي الوهم نعيش.. وبالوهم ندرك الأشياء من حولنا ..

والوهم هو المحرك الأساسي لحياة البشر، هو قوت يومهم وهو الطموح والهدف الأسمى الذي من أجله يكملون المسيرة ..

ولكن حذاري من أن تلفت نظر أحدهم إلى هذا الوهم المحيط به فإذا فعلت ستدمر كل شيء، بل ستدمر الحياة ذاتها .

أقسَمَتْ العاهرة إنها رأتني أطير نحو تمثال البقرة الإله.. وكذلك أقسَمَ أبي..

وها أنا أتحول من طفل أعور دميم مرفوض حتى من أبويه إلى مزار للناس ومصدر للبركة بل وربما تحولت فيما بعد إلى ما هو أبعد من هذا.. من يدري ربما عبدوني بدلًا من البقرة ذاتها..

ها أنا في عامي الثاني وأنا مازلت الطفل النائم المشلول يهرع إلى الناس ليتمسحونْ ويطوفون ..

ها أنا أصبحت حديث القرية وأسطورتها ..

ولكَم تحدث الناس بأمري في المجالس والطرقات بل وحتى في مجالس الشراب والعهر وفي مضاجع الشواذ والغواني.. فأنا المَعين الذي لا ينضب من الوهم الذي يتغذى عليه التافهون !!!

" كم يشبه حاله حال جدنا الأكبر سام ابن نوح.. هو نفسه كان في مثل حاله لا يطعم ولا يشرب إلا قليلًا ولم يتحرك حتى نزل إليه ملاك من السماء فعلَّمه السير.. "

ويرد أبي متفاخرًا:

- بل ابني أعظم من ذلك.. وإلا لما اختارته الألهة ليولد بأمرها.. ولتحمله ليجلس بين أقدامها المقدسة؟ ؟

لم يتعلم أبي شيئًا من الأيام الماضية.. ونسي كيف علَّمه الملك في ليلتين أن يتوقف عن الكلام نهائيًا لشهور.. وفي أمر أخف وطأة من طفل مقدس طار ليجلس بين أقدام الألهة ..

أيام قليلة.. لتؤكد الدنيا مدى شؤمي ونحس مقدمي إلى هذا العالم؛ فها هو أمر أبي يتحول إلى النقيض تمامًا بعد أن مال أحد مستشاري الحاكم الإله على أذنه ليخبره عن استفحال أمري وعن مدى جنون الناس بي إلى الحد الذي وصل ببعضهم أن يقدِّم القرابين عند مهدي.. بل ومناداتي بالطفل الإله !!

" وهل من إله غيري؟؟ أنا الحاكم الذي بيدي الملك.. أحيي وأميت.. وإليَّ ترجع الأمور !!! "

هكذا هتف الملك مغضبًا، وأردف في غضب هادر :

"إليَّ بذلك الرجل الثرثار.. وليحضر بين يدي مكبلًا في أغلاله ..و لنرَ إذا كان رضيعه سوف ينقذه من بين يدي "

وهذه المرة لم يعد أبي.. لم يعد أبدًا.. قالوا إنه بعد أيام قليلة في ضيافة الملك أقر بأنه لم يرَني أطير!!

بل أقر بأنه ليس بوالدي وأنني ابن زنا.. وأنه إن قال ما قال فقد كان فقط ليلفت أنظار الناس إليه ..

وعندها حكم الملك الإله بكل عدل ووقار بإلقائه في النار لاحتياله على العامة ..

ها أنا أضيّع أبي كما من قبل أضعت أمي ..

أما عن العاهرة التي شهدت معجزتي فلم يرها أحدٌ بعدها ولم يسمع عنها أحد؛ فكأن الأمر كله لم يكن فما أسرع أن ينشغل الناس بأمور أهم في قرية مثل قريتي.. وقد كان إقامة المهرجانات وإلغاء بعض الضرائب كفيلًا بعودة الولاء كله للملك الإله .

أما أنا.. فأخذت أتنقل بين أيادي العاهرات ومن ثدي تلك لثدي تلك.. وأنا على حالي لم يتغير شيء.. حتى كان يوم...

صحا الملك من نومه مرتاعًا وجلًا متعرّقًا.. أنهكه كابوس رهيب وجثم على نفسه؛ فقد رأى فيما يرى النائم كيانًا عظيمًا يجثم على صدره ويأمره في صرامة:

" اكفل الرضيع في بيتك "

وكلما حاول الهرب منه فزعًا، طارده وجثم على صدره وردد:

"اكفل السامري.. "

وظل هذا الحال طوال الليل حتى صحا على الحال الذي ذكرت.. صحا والكلمات تتردد في أذنيه والصوت لا يفارق ذهنه ..

"ياه.. ياله من صوت عظيم الوطأة شديد الصرامة، بالغ الثقل.. وكأنه داخل عقلي، داخل روحي.. وكأنه يطاردني.. ولا مكان للهرب "

حاول أن يتجاهل ما سمعه، وجاهد لينسى الأمر برمته، شغل نفسه بالملذات، وقضى ليلة صاخبة بين أذرع خليلاته ونام سكرانًا منهكًا ..

وما إن أغمض جفنيه حتى وثب الكيان العظيم على صدره مرة أخرى بوطأة أشد، وبلهجة قاسية وكأنه يعاقبه على تجاهل أمره وهتف فيه صارخًا بصوت أقوى من الليلة السابقة:

" ألم.أأمرك أن تكفل الرضيع في بيتك "

" قم فاكفل السامري "

قالها ويداه تعتصران فؤاد الملك والملك يكاد يختنق.. حاول أن يهرب فلم يستطع، حاول أن يدفعه عن صدره ففشل !!

انتفض مذعورًا مختنقًا وهو يصرخ صرخة مدوية.. وقام من فوره مناديًا على حاشيته:

" إليَّ بالرضيع ابن الرجل.. جدوا السامري وائتوا به فورًا "

ساعات قليلة وكنت بين يديه ملفوفًا في لفافة قذرة ورائحتي نفَّاذة بشعة..

اقترب مني، نظر إليَّ واستبشع خلقتي، ولكن كانت بشاعة منظري أهون عليه من ذلك الكابوس الرهيب.

في هذه اللحظة أيقن الملك أني شيء ما.. لست مجرد رضيع عادي.. وأيقن صدق الحكايات بخصوصي وعلم أنه مجبر على تربيتي وكأنه حُكم صدر ولا مناص من تنفيذه .

أمر حاشيته فإذا بي أُنظَّف وتبَّدل ملابسي ..

وما إن أتى الصباح حتى تلقفتني الأيادي لتفحصني ما بين أطباء وحكماء وكهنة..

أكَّد الجميع للملك أن لا علة بي.. ومال الكاهن على أذنه وتمتم :

- ربما كان كما يذكرون..
- وماذا يذكرون؟
- إنه كأبينا سام ..
- إذن أنت تقترح أن ننتظر ملاكًا سماويًا يهبط ليجعله يتحرك !!
- إليك عني أيها الغبي.. إنه مجرد طفل.

واقترب مني وهو يتمتم مغالطًا نفسه.. " نعم مجرد طفل "

تركونا وحدنا فقط أنا وهو.. والصوت الصارم الجبار مازال يأكل عقله ومازال يشعر وحشته وجبروته في قلبه..

" ماذا تحمل لنا الأيام أيها السامريّ"؟

كان يخافني أشعر هذا؛ فلقد تعلمت معنى أن يخافك الناس منذ نزلت.

من بطن أمي.. إنه ذلك الإحساس الكئيب بالرفض.. شيء لا وصف له إلا أنك تشعر أن عيون الناس تدفعك بعيدًا جدًّا..

- ما اسمك؟

- ....

- لم يسموك؟

- ....

سأسميك أنا، من اليوم أنت سام الصغير

وصار اسمي سام.. سام الصغير

ولم تختلف حالي كثيرًا، ولكن العناية بي هي كل الاختلاف الذي حلَّ بي، صار لي وصيفات وأطباء ولكن لا جدوى من علاجي؛ فها أنا أقترب من نهاية عامي السابع ولم أبدِ أيًّا مما يبديه أبناء سني، فقط حالة اللا نوم، لا يقظة.. وكأني أحيا في عالمي الخاص !

ومع كل يوم يمر أزداد غموضًا ويزداد الناس مني مخافة ورفضًا، حتى إنهم أشاعوا أني ممسوس بالجان.. حاول الكهان علاجي ولكن بلا فائدة..

كانت عيون الناس من حولي هي مآساتي الحقيقية ومعاملتهم الرفيقة الممزوجة بالخوف وعدم الفهم تأكلني أكلًا، كنت أشعر بها كأسياخ من نار تخترق جسدي.. كرهتهم قبل أن أفهم معنى الكره وتضخم لدي إحساس عميقٌ بأني مرفوض، وقابلت هذا الرفض برفض مماثل ورغبة في دفعهم جميعًا بعيدًا عني..

كان جسدي الميت في حرب مستمرة مع عقلي النابض بالحياة فصرت أسمع ما تتحدث به الوصيفات وقد بدا مبهمًا أول الأمر حتى شعرت أني أفهمه شيئًا بشيء، ومنهم عرفت حكايتي التي رويتها عليكم..

وصار تمرد جسدي عليَّ ورفض أعضائي أن تستجيب إليَّ - وكأنني مسجون داخل نفسي- دافعي لأن أنصت وأنصت، فصار عقلي مشبعًا بالأفكار، ودارت داخل نفسي آلاف المحاورات العميقة ليبدو شكلي وأنا المسجى بلا حراك متنافيًا تمامًا مع ما يدور بداخلي، فكانوا يصفونني بالميت الحي وأنا أكثر من أن أكون حيًّا وأبعد ما يكون على أن أكون ميتًا.. فأنا أنبض بالحياة بل بما هو أكثر من الحياة..

فأنا سر الحياة ذاتها.

وذات ليلة.. حدث ما لم أجد له تفسيرًا.. وإن كنت فهمته فيما بعد؛ ففي تلك الليلة المخيفة والتي كانت توافق أحد المهرجانات الصاخبة والتي كعادة أهالي بلادي امتلأت مجونًا وعهرًا، إذ برجَّة عظيمة تضرب الأرض لتتوالى بعدها الرجات والهزات..

امتلأ الجو من حولي بالهلع وأنا أرى كل شيء من حولي ينهار.. ليس فقط قصر الحاكم حيث صرت أعيش ولكن في كل مكان، فمن نوافذ القصر العالية كان يمكنك أن ترى الأبنية تتهاوى في ثوانٍ وكأنها ما كانت..

وحتمًا سيخترق أذنيك صوتُ صفير الريح المخيف، الرهيب؛ ففي هذه الليلة كان صوت الرياح كأنه يخاطب البشر ويصرخ فيهم..

إن كان للأصوات لون فإني أظن أن صوت الريح في تلك الليلة كان أسودَ..

وما بين صراخ الريح وصراخ البشر ولون السماء الأحمر المختلط بسواد داكن.. كان نذير الشؤم يحوم..

لم ينفع الناس صراخهم ولم تنفعهم هرولتهم، وإلى أين المفر وكل ما عتوا فيه وعاشوا فيه وفسقوا فيه يتهاوى.. وكأن الأرض نفسها قد صارت ترفض

كونهم يحيون فوقها والسماء بدت وكأنها ترغب بالفتك بهم.. رافضة أن تظلهم !!

وأنا وحدي على سريري الصغير.. الكل هرب طالبًا النجاة وتركوني ..

إلا عين الملك التي نظرت إليّ مطولًا.. بينما كل شيء يتهاوى حولنا

لحظات توقف فيها الزمن.. وكأنه يلومني على ما يحدث..

لحظات بدت كدهر.. لم يقطعها إلا عامود رخامي ضخم هبط ليستقر على جسد الملك ليقضي عليه في لحظة ..

أو أقل من هذا!!!!

كانت عيني الواحدة الصغيرة ترصد انهيار الحوائط من حولي والأسقف

ولكني لم أكن أشعر بالذعر.. كان الأمر بالنسبة لي وكأنه معزوفة خاصة وكأني قد فُطِرت على الهلاك والدمار فصار كأنه عاديٌّ بالنسبة لي !!!

كان مرأى الناس وهم يفرون يشعرني بسعادة بالغة بل وبنشوة صافية، وبينما أنا وسط كل هذا شعرت بيدين حانيتين تحملاني.. لا لم تكونا تلكما اليدين المشعرتين اللتين حملاتني من قبل ووضعتاني بين أقدام البقرة ..

بل كانتا هادئتين رائعتين.. تبعثان في نفسي شعورًا عجيبًا بالأمن والطمأنينة، لأول مرة أشعر هذا الإحساس وربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أشعر فيها هذا الإحساس ..

كان كيانًا بالغ الروعة لم أره.. ولكني أحسست أني أراه؛ أبيض نورانيًا صافيًا مملوءًا بالقوة والجبروت والراحة والأمان في مزيج عجيب من التداخل غير المتناقض..

وطرت في الهواء.. بعيدًا بعيدًا.. لأعلى ما يمكن لعين أن ترى.. وكأني أسبح في عالم خاص لا يقل روعة وجمالًا عن ذلك الكيان الجبار الذي أشعره ولا أراه ..

وفي الأسفل، رأيت المدينة التي وُلِدت بها ولقيت فيها ما لاقيت وكأنها تحمل لأعلى ثم تترك لتسقط في لحظة خاطفة مريعة مريرة.. ليبدو وكأنها قد مسحت من الوجود وكأنها لم تكن من قبل قائمة هناك !!

وبين السحاب كانت معزوفة أخرى تدوي في أذني ..

كانت أرق وأصفي وأكثر نورانية، وكان بيني وبينها سدٌّ عالٍ فأنا أسمعها وأحبها ولا أريدها..

أحسست تلك المعزوفة تطلبني، تتمناني، وأحسست أني أرفضها رغم راحتي فيها ولها وبها ..

من فوق بدا كل شيء صغيرًا دقيقًا، وبين مزيج وروعة تداخل الدفء والبرد بين الذراعين الحانيتين أغمضت عيني ونمت ..

نمتُ كما لم أنم من قبل..

نومًا حقيقيًّا تحقّه المعاني العميقة للحُبِّ والدفءِ والقبول، نوم أنساني كل ما مرَّ وجعلني لست راغبًا فيما سوف يأتي ..

جعلني فقط أرجو دوام اللحظة ..

وإيقاف الزمن .

***

- 7 -

واستيقظت..

نعم.. هكذا.. بنفس بساطة انتقال العين ما بين السطور استيقظت ..

وكان استيقاظي هذه المرة مختلفًا حقًّا؛ فأنا هذه المرة مستيقظ بحق.. واعٍ.. أرى وأسمع.. ولكن أين أنا؟

حيث أنا مستلقٍ، أستطيع أن أرى ضوء الشمس ينفذ من ثقوب صغيرة في سقف صخري تكسوه الخضرة في تداخل بارع ..

ويداي.. حين أحركهما على أرضية المكان تغوصان في رمال ناعمة مريحة..

وأذناي تلتقطان أصواتًا عجيبة ..

أخذت أحلل كل ما أستطيع أن أراه أو أسمعه لكني لم أصل إلا لنتيجة واحدة.. أني لم يسبق لي أن رأيت أو سمعت مثل ما أرى وأسمع الآن ..

ماذا أفعل؟

لم تكن بي قوة كافية بعد كي أقف أو أمشي كي أرى أين أنا، على أية حال سأنتظر؛ فأنا منسجم مع ما أنا فيه الآن وإن كنت أستغربه بعض الشيء !

وهكذا هدأت وأخذت عيني تنظر إلى السقف الصخري ذي النباتات الخضراء والضوء يتلاعب بها في لطف حتى حدث ما أفزعني..

إذ اقتحمت الصورة رأسٌ ضخمة تنظر إليَّ من أعلى فبدت نظرتها غاضبة نارية وكأنها تكنّ لي كل كره ومقت..

صرخت في صوت مكتوم وأنا أرى تلك الرأس المشعرة ذات العينين المحدقتين فيَّ، وبتعبٍ بالغٍ استندت إلى يديَّ الصغيرتين الضعيفتين ورفعت رأسي قليلًا.. فإذا بي أرى ذلك الشيء كاملًا ..

كان يبدو كإنسان ولكنه أضخم مما رأيت عليه بشرًا من قبل..

كثيف الشعر طويل الساقين عريض الجسم، له ذراعان طويلتان متدليتان تخرج منهما أصابع طويلة قوية ذات أظافر حادة .. كان ما تميزه فيه، إنه كتلة كبيرة من الشعر الناعم الذي لا لون له..

أما بالنسبة لي؛ فإن ما يميزه حقًّا هو كرهه الشديد لي.. هكذا قالت عيناه..

مازلت ضعيفًا والنوم يداعب جفنيَّ.. رغم شغفي وخوفي لم أتمالك نفسي ولم أجد في نفسي رغبة في مقاومة النوم.. فاستسلمت له ورحتُ في نومٍ عميق .

....

....

نوم.. يقظة.. نوم، يقظة..

بدت الأيام متشابهة وأنا ما بين استيقاظي ونومي ألمح أشياء تبدو مشوَّشة وكأن لحظة وعيي الأولى كانت فقط من أجل أن أدرك أين أنا وأرى هذا المخلوق العجيب ..

ولكن نومي ويقظتي هذه المرة كانا مختلفين؛ فأنا أشعر بأشياء كثيرة فيَّ تتغير ..

فبرغم نومي إلا أني أشعر بالصحة.. وأحس بأحدٍ يكلمني ويلقنني أشياء لا أستطيع أن أتذكرها إلا أني أشعر أنها تنطبع في ذاكرتي.. لا أدري ربما استعدتها في وقتٍ ما ..

وكم من مرة أحسست بيدٍ تسند رأسي وتدفع في فمي طعامًا!!

نعم كان أحد يطعمني، ومع تعاقب الليل والنهار لمرات لا أملك أن أحصيها

- رأيت المخلوق قابعًا عند باب المكان الذي أنا فيه.. ظهره لي ووجهه للخارج.. ماذا يفعل.. هل هو يحرسني؟؟

لا أعلم.. لا أفهم.. ولكني أحس بأمنٍ شديد سأنام ..

....

" قل ورائي : اللهُ ربي.. لا إله إلا الله "

....

" قل ورائي : الله ربي.. لا أشرك به أحدًا "

....

الله... الله ... الله...

"كن يا ابن الغد ابن اليوم ولا تكن ابن الغدِ في أي يوم "

....

الله.. الله ... الله...

....

كم من الأيام مرت؟

كم من الشهور؟

كم من السنين؟

" قل ورائي: أنا خلق الله.. الله ربي.. لا إله إلا الله.. أنا عبد الله.. أنا عبدُ الله.."

ماذا يحدث؟ أحدهم يحرك رجلي بقوة.. هذا مؤلم.. مؤلم..

الله... الله ... الله...

ضاع الألم.. كل شيء مشوش.. ضبابي.. أشعر الآن برجلي أشعر بنفسي.. أشعر بالخوف .

....

نهار، ليل

نهار... ليل

نهار... ليل

نهار !

صباح مختلف؛ فهذه أول مرة أقوم من نومي جالسًا لا مستلقيًا.. نعم فأنا أستطيع الآن أن أجلس بلا مساعدة بل وأن أنهض أيضًا ..

ها أنا اقوم.. أقف.. استغربت إحساس الوقوف، سرت في ارتعاشة خفيفة وإحساس بتقلبات في معدتي.. تماسكت.. لم أدرك من قبل معنى هذه الكلمة ولكني الآن فهمتها ..

استندت إلى أقرب حائط ومشيت..

من بعيد رأيت المخلوق على بابي.. نظر إليَّ.. وترك مكانه وذهب ..

ماذا يريد أن يقول؟؟

أيريدني أن أتبعه؟

أن أخرج من هذا المكان؟ ماذا يوجد في الخارج؟ ؟

شعرت بالتوتر.. ولكن تملكني الفضول.. سأخرج ..

* * *



- 8 -

ألوان ..

كلمة جديدة تدخل قاموس حياتي..

ففي عالم من الألوان كان كهفي الذي قضيت فيه كل المدة الفائتة..

جمال طاغٍ يطفو فوق الكلمات التي أريد أن أصف بها المكان الذي أنا فيه

إنها جزيرة خضراء تنتشر بها النباتات والأزهار..

أشجار الفواكه تملأ حد النظر والماء يحد المكان في احتضان.. ماذا؟

ماذا أقول؟ ما هذه الكلمات؟ من علمني إياها.. من ذا لقّنني أن هذا هو البحر

وتلك هي السماء وهذه هي الأشجار؟

من قبل أن يلقى بي هنا لم أكن أدرك إلا المقت والكره والرفض ..

ولم أكن أدرك إلا ماهية القبح..

والآن أرى حيوانات تقترب مني بألفة.. تحاوطني بينما أسير، وأطيار تطير من حولي وكأنها ترحِّبُ بي !!!

ماذا ألا ترى مدى قبحي؟ ؟

ألا ترعيها عيني الواحدة البشعة؟ ؟

ما بالها لا تلقي بالًا لما أنا عليه من سوء خلقة؟ ؟

الآن أشعر أني لستُ أنا وأشعر بمشاعر حب تتدفق من حولي كما يتدفق الماء في هذا الجدول الصغير المجاور لكهفي المخضوضر المضئ.

مهلًا!! ولِم أتصور أن هناك خطبًا ما بي؟؟

ربما كنت جميلًا من البدء!! نعم إنهم يروني جميلًا ولا يفرون ولا أرى في عيونهم ما تعودت أن أرى في قريتي التي انطبقت عليها السماء ..

ثم من أطبق عليها السماء؟.. ولماذا ..؟

ربما أنا أطبقت عليهم السماء لأنهم نبذوني.. وجئت إلى هنا طائرًا إلى حيث يراني الكل طبيعيًّا، بل رائعًا !!!!

مددت يدي لألتقط بعض الفاكهة ولدهشتي لقد انثنى الغصن لي !!

أنحني لألتقط الفاكهة.. إنه يمتثلُ لأمري.. الكل يفعل ..

ها أنا أشيرُ لحيوان يبدو خطيرًا، أنيابه الحادة تكاد تظهر من بين شفتيه.. يبدو وحشيًّا قاتلًا.. وها هو يقترب امتثالًا لأمري يتمسّح فيَّ كأنه قط.. بل ويلاعبني..

وصدمتني الحقيقة أن كل ما هنا حولي في خدمتي.. لابد أنني شيءٌ هامٌ جدًّا..

ولكني لا أدرك حقيقتي بعد..

أخذت أتجولُ مستمتعًا بإحساسي العظيم بنفسي..

أشعرُ بفخر وسيادة.. ومن حولي خدمي من الحيوانات والطيور ..

أشير للشيء فيأتيني.. أمد يدي للماء في الجدول فيقفز في يدي ..

الكون كله ملكي..

وفي لمحة من ذكرى بعيدة تذكرت كيف سجد أبي والعاهرة لي ..

وكيف سجد أهل قريتي من قبل ..

أحسب أن هذا هو قدري.. وأن هذا موضعي.. وهذا ما أكون .

وعلى البعد هناك قرب مجموعة من الصخور رأيت المخلوق ينظر لي بعينيه الناريتين..

يرقبني.. وعيناه تقولان لي بلا أي كلام.. لست ما تظن أنه أنت.. إنهما تضعاني في حجمي.. إنهما تحقران شأني.. أنا أكره هاتين العينين .

الآن أنا لا أنام.. مطلقًا.. وهذا لا يشغلني، بل إني لا أشعر بأي رغبة في النوم.. أقضي يومي كله في الجزيرة أرى وأسمع وأحفظ.. عيني تلتقط كل شيء وتسجله.. وأذني أيضًا..

عقلي يحلل كل شيء ويجد له سببًا..

تفاهم تام وانسجام مطلق هما ما بيني وبين كل مخلوقات الجزيرة.. وجسدي يكتسب قوة عظيمة.. فأنا الآن أستطيع أن أحمل الصخرة الكبيرة بيسر وسهولة، وأمشي لساعات بلا كلل.. وأتسلق الصخور العالية وأقفز من شجرةٍ لأخرى..

وعيني الواحدة ترى أبعد ما يكون وتلتقط أدق التفاصيل.. والليل والنهار يتعاقبان عليَّ وكأن لا قيمة للوقت هنا حتى إني توقفت من وقت طويل عن محاولة احتساب كم نهار وليل تعاقبوا عليَّ!

وفي كل مرة أدلف إلى الكهف أجدُ مأكلي ومشربي بل حتى ملابس من فراء، وأقمشة لا أدري من أين أتت أو من أحضرها ولو أني أظنه المخلوق المُشعر الذي يرقبني دائمًا من بعيد ..

وظل الحال هكذا لوقت طويل حتى كان يوم .

كان النوم قد عاودني، ولكن في بطءٍ شديدٍ ولدقائق معدودة حتى وصل إلى ساعات قليلة لا تزيد عن الثلاث ساعات، بعدها استيقظ في منتهى النشاط لأبدأ تجوالي اليومي في مملكتي الجميلة.. وكنتُ لا أملّ أبدًا من تجوالي بالجزيرة فرِحًا بما أنا فيه من حظوة وتملُّك وأنا الذي قبل أن آتيها كنت مُشرَّدًا تتلقفني الأيادي ..

في هذا اليوم لم أتوقف عن السير حتى أخذتني قدماي إلى طريق بين أشجار كثيفة لم أكن قد سرت به من قبل، وهناك لمحت المخلوق واقفًا على تلة عالية يشير لي أن أتقدم نحوه ..

تملكتني الخيفة لثوانٍ ولكني قلت لنفسي "لو أن كل من في الجزيرة يأتمرُ بأمري فلِم أخاف من ذلك المخلوق.. وماذا قد يجعله مختلفًا عن الجميع؟"

فاستجمعتُ شجاعتي وخطوتُ نحوه في خطوات واثقة..

سار أمامي دون أن يلتفت وأنا من ورائه مترقّبٌ، أصعد تلال وأهبط وأنا لا أدري إلى أين يقودني حتى جاء بي إلى صخيرات متجاورة تختلف عن كل ما في الجزيرة من صخور، كانت كأنها ألواح مرشوقة في الأرض وكان عليها

بعض الكتابات.. بالطبع لم أستطع أن أعرف المكتوب؛ فأنا لم أتعلم القراءة أو الكتابة بأي لغة بعد.

التفتَ إليَّ المخلوق وحدَّق في عيني بقوة فبدت لي عيناه كأنها بئرٌ سحيق وتكلم ففهمته وكان صوته كأنه يدوي داخل رأسي، كان صوته قويًا، واضحًا، صارمًا ..



- 9 -

" أنت الطفل الذي أنجاه الله تعالى من الخسف بأرض السامرة ..

إذ قال لرئيس ملائكته جبريل:

"يا جبريل، إن هذا الطفل عبدي.. لكنه سيكون متألهًا عليَّ في آخر زمن الأرض وسيؤمن به بعض الناس ويتبعونه حتى أرسل عليه عبدًا من عبادي يكون نبيًّا في زمنٍ ووليًّا في آخر الزمان.. فيسومه سوء العذاب ويقضي عليه.. فأرفعه من السامرة حتى يأتي زمنه "

ورفعك منها جبريل وأتى بك إلى هنا ورعاك بالأكل والشرب "

وبدا صوت المخلوق أكثر قوة وهو يقول:

"فيا سامري لاتخن عهد الله، فإن كل ابن آدم زُرع في قلبه الإسلام له والإيمان به ماداموا على الفطرة وأنت وحدك ها هنا على الجزيرة الطيبة يأتيك أُكُلك كما تشتهي والكلُ من حولك مطيع وها أنت تسير وترتعُ ما بك من داء ..

وأذهب الله عنك ما فيك من عجز وضُرّ، فلاتكن إلا مسلمًا مومنًا برب الكون الأوحد الذي لا إله إلا هو "

وصمت.. وبدا صمته قويًّا مثل ما قال، قاطعٌ وواثق.. لم أجد أمام تجهمه وصمته إلا أن أصمت خائفًا وجلًا..

تضاربت في عقلي الأفكار وانفجرت ملايين الأسئلة.. ولم أدرِ بأيها أبدأ .

لم يكن ما قاله منطقيًّا بالنسبة لي، ولكن أيًّا من أيام حياتي الماضية كان منطقيًا؟؟

وخرج صوتي مبحوحًا وأنا أسأل في ذعر:

- من أنتِ؟

- أنا الجسّاسة.. آخر بني جنسي، حملني جبريل إلى هذه الجزيرة بأمر الله لأكون فيها ما شاء الله لي أن أكون وأنطقني الله بكل لسان، لا أتكلم إلا أن يشاء الله.. فإن شاء أن أصمت صمتُّ، لا راد لمشيئته سبحانه .

- ولكن لِم أنتِ هنا؟ أمن أجلي؟

- نعم...

أنا هنا لحمايتك حتى تشبّ وتقرر ما تريد أن تكون، فأنت يا عبد الله على هذه الجزيرة مخيَّرٌ.. وجعل الله هنا كل ما حولك في خدمتك لترى فضل الله عليك وتعلم أن لا إله سواه وأنك لولاه لكنت مدفونًا تحت أنقاض السامرة.. فإن أنت اخترت أن تكون عبدًا لله فأنت في رغد وعلى الله لك أن تملك في الأرض ويمكّنُك فيها بإذنه، وإن اخترت أن تكون متألهًا عليه، أخرجك الله من هذه الجزيرة وأخَّرك إلى أجل مسمى فلا يقدر عليك أحد إلا من ارتضاه الله وسلَّطه عليك وتكون عند الله مذمومًا ..

كانت كلمات الجسّاسة تخترق قلبي وكأنها سيوف وتحتفر في شعوري وتجلد عقلي بلا توقف..

أحقًا ما تقول؟؟

وكأنها تقرأ ما في رأسي يدور، أشارت إليَّ فتبعتها كالنائم حتى توقفت أمام الألواحِ..

وبدأت تلقنني الحروف وأنا أحفظ عنها ما تقول بسرعة كبيرة، حتى تعلمت حروف الكتابة العربية والعبرانية في وقفتنا هذه، ثم أشارت عليَّ وقالت لي اقرأ..

اقتربت أكثر من الألواح والتي بدت الكتابة عليها وكأنها مكتوبة بمداد عجيب غير أرضي وقد تناثر من حول الألواح هذا المداد فملأ الأرض بتراب من لون عجيب.

أخذتني أفكاري فهتفت بي متعجلة: اقرأ

وقرأت...

" لااله الاالله "

" الله وحده لاشريك له "

" أنت رباك جبريل الأمين فلاتكن خائنًا لعهد الله"

" أنت وحدك في هذه الجزيرة "

" كُلْ وأطعِم كما تشاء من رزق الله ونم كما تشاء واعبد الله على كل حال بتسبيح الوحدانية وهي صلاتك: الله الملك الأحد، لا والد له ولا ولد، الله أكبر الله الأعظم، الله الملك "

" كن يارجل الغد ابن اليوم ولا تكن رجل الغد في هذه الجزيرة في أي يوم "

" لا كتاب لك إلا ما يأتيك به آخر الأنبياء في بداية آخر الزمان " .

- فإن آمنت به فأنت رجل الغد المؤمن بالله وإن كفرت به كنت رجل الغد الموعود بعذاب الله ..

وإنك حاضر نبيين مسلمين لله، فإن آمنت بما آمنًا به يسَّر الله لك الإيمان بالخاتم لمن سبق والعاقب لمن راح واسمه محمد الأمين، وإن كذبت بمن قبله فإن الله يغلف قلبك بغلاف الرين الأسود فلا يرى قلبك النور ولايرى عقلك إلا نفسك كهذا الملعون المطرود من رحمة الله، إبليس الرجيم ساكن البر -مود القديم فتكون له قرينًا ويكون لك مقارنًا وساء قرين لمقارنه أن يكون الملعون الرجيم والملعون المنبوذ -الذي لا يمس حتى حين- في دار واحده في بحر ورياح وغد لا يرحم الله فيه المطرودين من رحمته.

كن يا ابن الجزيرة الذي رباه عظيم ملائكة الله، مؤمنًا بالله وملائكته ورسله، وإلا فانك في شرٍّ ويكون لك سجن ألف عام نذيرك فيها وبشيرك تكذيب عرب مكة للنبي الأمين ومهجره إلى طيبة الطيبة أرض الشجر والنخل..

ويكون لك يد عُليا يوم يُقطع نخل بيسان في بلد إسراء النبي العربي ومعراجه، وماء يفور وماء يغور بأرض زغر وطبريه..

وحرام عليك يومها أن تدخل مكة كرَّمها رب العالمين ولا طيبة إلا في بقعة أحد وهو جبل أحب الله فأحبه الله ولا قدس الإسراء والمعراج لخاتم الأنبياء..

وأردفت في خشوع عجيب بنبرات شعرتها تكاد تذيب ما حولنا من أحجار وصخور:

- وهذا عِلم الله لك، كتبه جبريل أمين الوحي وترك لك أثرًا إلى جوار الصخر؛ خاتمًا من أمين الوحي جبريل الأمين رسول الله رب العالمين.

....

....

قرأت.. وأعدتُ القراءة.. مرات ومرات ..

وأخذت الجساسة تشرحُ لي ما قرأتُ وأنا في دوامة تبتلعني وتدورُ بي..

الآن صار كل شيء منطقيًّا..

الآن عرفتُ سري وأيقنتُ قدري وعرفت مصيري..

ومرةً أخرى شعرت بان الجساسة تقرأ افكاري لأنها اختطفتني من افكاري هذه وقالت في ثبات :

- يا سامري.. لو أنَّ الله أقرَّ عليك مصيرك لما وهبك عقلًا لتفكر.. ولما جاء بك إلى هنا لتكون وحدك.. بيدك أن تختار فيما بين أن تكون مؤمنًا وملكًا مظفرًا أو متألها ومطرودًا من رحمة الله ومنذورًا للعذاب..

وقد جعل الله لك عبادة سهلة.. صلاة تنطقها بلسانك وتكن تسبيحك ونجاتك

وجعل الله لك عقلًا عبقريًا لتحفظ ما تسمع أو تقرأ ولتحلل وتتعلم ومدَّ الله في عمرك لتحضر ثلاثة من أنبيائه الكرام ..

وحفظ عليك سنك الذي عليه تغادر هذه الجزيرة فلا تتغير صورتك ولا تشيب ولا يضرك بشر ولا مَلكُ ولا مرض..

أما إن اخترت العصيان والتمرد على ملك الملوك فإن علامتك ليلةٌ لا تنام فيها بعدها تخرج من هنا.. فلا يكون لك حبيب ولا رفيق إلا إبليس اللعين، ليكن موعدك مع عبد الله.. مسيحًا يهبط على أجنحة الملائكة في آخر الزمان، ما إن ينظر إليك إلا وتذوب كما يذوب الملح في الماء.. تهرب منه فيأبى إلا أن يطعنك بحربته.. ويهلكك وجيشك بعباد لله يحبونه ويحبهم على رأسهم عبد مهدي من آل بيت آخر الرسل.. فتخلد في النار..

أما عني انا.. فعلامتي معك ليلة تحاول فيها قتلي.. فأهرب منك فلا تجدني بعدها إلا أن يشاء الله ..

وسكتت الجساسة.. وصارت لا تتكلم بعدها إلا من لغة الحيوان وابتعدت.

أما أنا.. فوقفت وحدي أتأمل الألواح وأثر الرسول صامتًا تائهًا.. خائفًا.. مترددًا.. لا أدري أيهما كان أفضل لي؛ أن أعلم مصيري وأدرك أني بيدي الاختيار ..

أم أن أبقى على جهلي لأسير طريقًا كنتُ أحبُ أن أظنه مفروضًا عليَّ.

***

- 10 -

" أُسقِط في يدي "

ليتني ما علمت.. الآن سيكون عليَّ أن اختار.. أن أُكذِّب أو أُصدِّق.. أن أصبح شيئًا ما.. أو شيئًا آخر عكسَه!!

وفي كل الحالات أرى كل ما حولي خرافيًّا وغير مفهوم وغير منطقي ..

ولكن مهلًا ما هو المنطق؟

من أين أتت تلك الكلمات على لساني؟ ولماذا أجد الكثير من الكلمات داخل عقلي، بعضها لأشياء لم أرها ولا أعرف ماهيتها.. بعد .

أشعر أني انقسمت إلى نصفين.. شخصين.. أحدهما يصدِّق كل كلمة نطقت بها الجساسة.. والآخر لديه شك في كل شيء حتى في وجوده.. لمن أستمع؟؟

إن الضجيج يملأ عقلي وأنا الذي لم أعرف من قبل كيف الأفكارُ تتزاحم، بل لم أعرف حتى سوى فكرة واحدة شغلتني طوال عمري وكانت سؤال :

"لِمَ أنا منبوذ"؟

والآن تأتي تلك الحيوانة المشعرة لتهتف في وجهي إنه خطأي أنا؟

وأني من يجب أن يختار ..

وأن مصيري بيدي ..

وأن...

وأن...

ما هذا الهراء؟

ولماذا أصدّق هذا الكلام أصلًا؟ بل ولماذا أصدّقُ أنها تكلمت؟

ماذا لو كنتُ أتوهَّم؟

ماذا لو كان كل هذا مصدره نفسي.. ماذا لو كنت أنا كل شيء حولي وأنا كل ما حدث وما سوف يحدث، ما هو كائن وما سيكون؟

ماذا.. لو.. أني أنا صاحب كل شيء.. ومالك كل شيء.. وخالق كل شيء؟

بدت الفكرة منطقية في هذا الوقت.. وبدت كذلك مريحة.. ما إن قفزت في عقلي ورددها لساني حتى تخدَّرَتْ أعصابي وهدأت نفسي وامتلأتُ فخرًا وزهوًا..

وكِبرًا

وابتسمت ..

والتمعت عيني الواحدة، حتى كادت تنير وشعرت أني قادر على امتصاص العالم من حولي، يالها من حماسة تلك التي اعترتني..

ولم يقطع نشوتي إلا رؤياي للجسَّاسة بعيدًا أمام قرص الشمس الذي يهبط غاربًا فوق أعلى تلة يمكن أن تراها العين في هذه الجزيرة.. كانت بعيدة ولكني أعرف أنها تراني.. تنظر إليَّ.. تكرهني..

قلتُ لنفسي: " لو أني حقًّا خالق كل ما حولي فأنا لا أظنني قد خلقت تلك.. حتمًا خلقها غيري "

أرَّقني شعوري أن لا سلطة لي عليها خلافًا لكل ما هو حولي على الجزيرة..

وأوجستُ منها خيفة.. وبدت لي أنها القوى الطبيعية المضادة والتي تنكرني وتنكر مقدرتي وفكرتي الجديدة في تأليه نفسي .

ثم ذلك الكلام الذي قالته وتلك الحروف التي علمتني إياها.. وذلك المداد على الأرض بجوار الألواح !!!

ما كل هذا؟

ربما عليَّ أن أتأنى بعض الشيء ..

بالطبع ليس لأنها على حق.. فهي ليست على حق ..

بل لأني.. أنا ..أريد أن أتأنى.

مرَّ الوقت بطيئًا كئيبًا كأنه يجلدني.. حاوطتني الأفكار وتلاعبت بي وكلما هربت منها لحقت بي في إصرار وبدت كأنها تتمكن مني فتتغلغل داخلي عابرة جلدي وكأنها دوامات مائية صغيرة كتلك التي تعودتُ أن أراقبها كل مغيب من أعلى الصخرة المطلة على البحر..

ترى.. ماذا وراء تلك الأمواج المتلاطمة وأي مصير ينتظرني؟ ؟

وبأي طريقة سأخرج من هنا عابرًا جبال الماء المتلاطمة من حول جزيرتي ..؟

بدت كل الأفكار متشابهة وأنا ما بين الشك واليقين.. بين إيماني بنفسي ووقع كلام الجسَّاسة عليَّ..

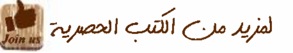
لسبب ما أجهله، كان لساني يتحرك بالتسبيح الذي علمتني إياه.. لسبب ما لا أعرفه، كان وقع لفظ الله الذي صاحبني في نومي الطويل محببًا ويمدني بشعورٍ أشبه بذلك الشعور الذي تغمدني وأنا بين يدي ذلك النور الطائر الذي عبر بي السماء يوم خسف السامرة.

ولكني أيضًا لسبب أجهله كنت أتحكم في نفسي وفي لساني وفي مدى تقبُّلي لذلك الشعور.. فكنت أحاربه.. أقاتله.. أمنع نفسي عنه.. وكلما تمكنت من منعه زاد شعوري بالتفوق وتضخم إحساسي بنفسي وبما أنا عليه من قوة وسطوة ومُلك ..

ودنت فكرة أني محور كل شيء مني شيئًا فشيء حتى توقف لساني عن الذِّكر وقلبي عن التفكر وأصبحت الفكرة الكبري التي تسيطر عليَّ ها هنا، هي كيف سأغادر هذه الجزيرة نحو مستقبلي القادم، وكيف سأغير الدنيا التي لا أعرف معالمها لتصبح في قبضة يدي.. تمامًا كما أستحق.. أنا الذي سجدَ له الناس رضيعًا وأطاعته المخلوقات هنا ...

مرت الأيام تباعًا وأنا بين تلك الأفكار المتضاربة وعينا الجسَّاسة التي توقفت عن الكلام تمامًا تتابعني باستمرار وقد بدا عليها الاهتمام وهي تراقبني ألتقط أشياء عدة من أماكن متفرقة من الجزيرة وأضمها لكهفي ..

وأكاد أقول أني لمحت إعجابًا في عينيها المرعبة بعدما رأت كيف أني صاحب العين الواحدة قد صنعت أشياء عدة لا أدري لها اسمًا.. منها ما يحميني من حرارة الشمس والأمطار- والتي غالبًا ما كانت تفاجئني ليلًا على غير انتظار..



أو عندما صنعت مقاعد للجلوس، من أغصان الشجر والفروع الضعيفة..

بدا إصراري على خلق سُبل لراحتي بالنسبة للجسَّاسة مثيرًا للاهتمام وهي لا تدري ماذا حقًّا يدور في رأسي..

كانت دائمًا ما تعاملني بحذر وتتفادى الاحتكاك بي ولكني كنت دائمًا أحس أنها تراقبني.. أرّقني هذا الشعور في بادئ الأمر إلا أنني ما لبثت أن اعتدته ..

كان إيماني بنفسي يتعاظم يومًا بعد يوم ..

وكُفري بكل ما قالته الجسَّاسة يتعاظم كذلك...

كنت أقضي اليوم بطولِه في ترحالي الدائم الشغِف بما حولي وأفكار الابتكارات التي تكدَّس بها كهفي تهاجمني كومضات مع كل طرفة عين.. وكلما رجعت إلى كهفي وجدت طعامي وشرابي في مكانهما المعتاد..

وبدا كل شيء طبيعيًّا حتى كانت ليلة ..

***

- 11 -

كانت ليلة مظلمة.. لا قمر فيها ولا نجوم ..

علا فيها صوت الريح كصراخ حزين لا ينتهي..

ملأت الغيوم السوداء السماء وترابطت وكأنها حائطٌ ضخمٌ من خوف وحزن.. ثقلت نفسي بالكآبة وامتلأت نفسي بالخوف ..

فاجأتني الأمطار وأنا أتنقل بين الصخور وقد تملكتني ميول للمعرفة والتعلًم بدت كعطش زائد لا يرويه ماء.. مطر عجيب غزير تحرِّكه رياح باردة في كل اتجاه، ومع حركة الرياح يضربني المطر كسياطٍ لاذعة ويدفعني الهواء البارد في صدري وكأنه يكرهني ..

برق.. رعد..

تعالت الأصوات والأضواء المتقطعة من حولي في كل صوب.. وكأن الطبيعة ثارت عليَّ مؤكدةً أني لستُ خالقها ولا محرِّكها كما تعودتُ أن أظن ..

ليلة ذكَّرتني بليلة خسف السامرة.. نعم.. مازالت أذكرها.. ولا أستطيع أن أنساها ..

بلا وعي وجدتني أتحرك في خطوات مسرعة..

لتتحول خطواتي إلى عَدْوٍ.. عدوٍ مجنون بلا توقُّف..

وبينما أنا أعدو وأعدو تعلو الأصوات الصاخبة من حولي وتتداخل في مزيج من سخطٍ صافٍ لا يرحم..

وبين الأصوات صوت واضح ثقيل.. له ثقل الجبال.. يهتف بي بلهجةٍ آمرة:

- اسجد لربِّك يا سامريّ.. اسجد لربك يا سامريّ..

كنت أهرب من الصوت وكأني أهرب من نفسي.. أخلع عني جلدي ولحمي وعظامي..

- أطِع ربك يا سامري.. قل لا إله إلا الله .. انطق بالحق يا سامري ..

أعدو أكثر وأكثر.. وأكثر..

- لا مفر من الله إلا إليه.. فِرّ إلى الله يا سامري.. لا تطع نفسك ..

لا ... لا ...

أي لعنةٍ مجنونة تطاردني هذه الليلة.. اتركني ..

اتركني ..

برق.. رعد..

برق...

رعد ..

جنونٌ مطبق وصاخب ..

كنت أقطعُ خطوط الأمطار الثقيلة وأصطدم بها وكأني أصطدم بحائطٍ صلب.. الواحد تلو الآخر.. وعواء الرياح من خلفي يخترقُ قلبي ويضعني في مكانتي التي أرفضها..

كان الظلام دامسًا وما عدت أرى أي شيء أمامي، وبلا وعي انزلقت قدمي ووجدتني أسقط.. وأسقط.. وأسقط..

اصطدمت بعشرات الأشياء في طريق سقوطي.. أغصان.. أحجار..

مزقت وجهي أشواك النباتات وأنا أواصل سقوطي.. بلا توقف ..

أسقط.. وأسقط.. وأسقط...

أصطدم وأُجرَح ويدمي جسدي..



اصطدام أخير.. تهتز الرؤية ..

تسكت الأصوات.....

يتوقف كل شيء..

أغيب عن الوعي .

....

.... ومضة ضوء ....

الضوء يقترب... يقترب... هو ليس ضوء... بل هو نار... كتلة لهبٍ مشتعلة... تقترب أكثر فأكثر...

ها أنا أنتصب واقفًا.. كأنني أطفو.. أطير ..

يواجهني شخص يتكون أمامي من الكتلة الملتهبة .. أشعر أني أعرفه...

إنه.. إنه.. كل شيء مشوش..

أحسُ بأنه يحدثني.. كلماته تسقط داخل رأسي مباشرة.. أسمعها بلا صوت..

كأنه يهمس في عمق :

- أنت لي.. أنت لي.. أنا في انتظارك يا سامري.. هناك.. حيث ريح
- ورياح.. وغدٌ لا يرحم.. أنت لي..

يبتعد في بطء للخلف ولكنه لا يسير.. وصوته مع بعده يبدو أعلى.. وأعلى ..

الصورة تتضح شيئًا فشيء..

أنا أعرفه.. إنه.. إنه...

أنا..

ضوءٌ مفاجئ يخترق عيني كأسياخ النار.. أستيقظ

أنتفضُ واقفًا.. ألهثُ بقوة.. أين أنا؟

أنا في كهفي.. من حملني إلى هنا..؟

ألتفت في سرعة نحو باب الكهف ضوء النهار يأكل عيني الوحيدة في نهم..

أراها..

الجسَّاسة.. تلك الرائعةُ البشعة ..

لابد أنها من حملني إلى هنا ..

ألمس جروح وجهي فأجدها قد غطت بمعجون له رائحة نفاذة..

إذن هي حقًّا تعتني بي ..

اقتربت من ظهرها الذي يواجهني في وقفتها المعتادة عند الباب..

كم أود أن أقتلها ..

أقترب في بطء.. تلتفت هي بحدة

- لِم لَم تؤدِّ صلاتك؟

- إذن أنتِ تنطقين ثانيةً..

كررت سؤالها:

لِم لَم تؤدِّ صلاتك؟؟

قالتها في عنفٍ بالغ.. ولهجةٍ قاسية ..

رددتُ بغضبٍ بالغ..

- هذا ليس من شأنك.. هل تظنين أنني صدَّقت تخاريفك؟

هل تحسبين أني غير مدرك لماهيتي.. اسمعي إذن أيتها المتبطرة على خالقك أنا كل شيء وأنا صاحب كل شيء.. بداية كل شيء ونهايته.. كل شيء هنا يأتمرُ بأمري.. وأنتِ.. ما أنت إلا شيطانة خرجت على أمر سيدها وخالقها.. أتظنين أنك قد تتحكمين فيَّ أنا سيدك؟؟!!!

كان غضبي عظيمًا.. وصوتي هادرًا.. وكانت الجزيرة بأكملها ترتج لكلماتي.. أما الجسَّاسة فكانت ثابتة بعينها النارية تحدق فيّ.. وفي لحظة خاطفة انقضت عليَّ وهي تهدر بزئير قوي وبدت أنيابها المرعبة في مواجهة وجهي كأبشع صورٍ للرعب على الإطلاق..

شعرت أني أتهاوى.. ويداها تتلقفانني.. شعرت أني أغوص بين شعرها الكثيف وهي تحملني وتعدو بي قافزة فوق الصخور في قفزات واسعة عابرة التلال والأنهار.. لتستقر بي أمام الألواح وتلقي بي أرضًا في عنف.. وتصرخ بي :

- اقرأ..

- ما أنا بقارئ..

تزأر في عنفٍ ووحشية بالغة في وجهي.. ثم تعيد آمرة:

- اقرأ ...

كان الخوف يتملكني ولكن تملكتني رغبة عارمة في أن أتحداها فهتفت في تكبُّر:

- لن أقرأ.. لن أقرأ ...

..........صمت..........

وكأن الكون بأكمله يشاركنا صمتنا...

"يا سامري .. أنا لك ناصحة ..

لا تخن عهد الله.. أدِّ صلاتك.. وسبح اسم ربك.. ولا تكن كأبليس الذي ابقَ عن أمر ربه.. لا تتكبر على رب السماوات والأرض واعلم أنك لك مردٌ وآخرة..

وأنك ملاقٍ وعدَ اللهِ حقًّا .."

- اصمتِ.. لا أريد أن أسمع شيئًا من هذا..

أسد أذنيَّ بكلتا يديَّ.. وهي تكمل مشيرة نحو المداد المتناثر على الأرض

"يا سامري.. قد جعل الله لك معجزة وإشارة.. غبارٌ من أثر الرسول.. جبريل الأمين.. ما إن تلقيه على ما لا روح فيه حتى يُرَدّ حيًّا بإذن الله.. جربه يا سامري ..

وامثُل لأمرِ ربك.. فإن أنت رأيتَ وصدقتَ وسجدت لله مسبِّحًا كان لكَ مُلكًا وقُربى ومددًا.. وإن أنت رأيتَ بعينك وكَذبت.. كانت عليك وبالًا وحسرةً وغشاوة.. فلا تؤمن حتى ترى العذابَ الأليم "

يصبح الصمت مُعذِّبًا عندما تسكت الجسَّاسة..

فها هي تعطيني ظهرها وتبتعد قافزة من حيث أتت تاركة إياي في حيرتي أمام الألواح..

واقفًا بلا قوة أحدِّقُ في المجهول.. والأرضُ تبلعني وتلفظني مرات ومرات بلا توقف ..

في خطوات مرتعشة أقترب من الألواح وأتأملها.. وتمتدُ أصابعي المتشنجة كجذوع النخل لتلمس المداد البني المائل للاحمرار في رهبة.. ناعم.. خَشِن.. ذو حرارة هو، من ملمسه يبدو مليئًا بالحياة ..

كمن تطارده الشياطين.. جمعت في كفي ما أستطيع حمله وغادرت مسرعًا نحو كهفي .

***

- 12 -

قرص الشمس الأحمر في رحلته الدائمة للمغيب.. يبتلعه البحر متلاطم الأمواج في مشهد حزين مذكِرًا إياي بغرقي الدائم في بحور اليأس واللامعنى والحيرة التي لا تنتهي..

أشعلت بقعة نار لأتدفأ عن طريق صك حجرين مُقرِبًا منهما كومة قش جاف.

ولا تسألني كيف تعلَّمت إشعال النار؛ فهذا شأنه شأن كثير من الأمور التي أجدها في نفسي وكأني فُطِرت عليها ..

كذلك اليوم الذي نزلت فيه إلى البحر وبعد محاولات يسيرة وجدتني أسبح كأني سمكة دون أن يعلّمني أحد..

نفخت في القش لأزيد من وهج النار وأنا أرمي به بعض الأغصان الجافة التي أجمعها من حينٍ لآخر تاركًا إياها في كهفي..

ارتميت على مقعدي البسيط ودنت مني نظرة للمداد الذي جمعته وقد كوَّمته داخل قوقعة بحرية مليئة بالمنحنيات والدوائر اللامتناهية ..

ماذا أنتظر؟؟؟



لماذا لا أجرِّبه وأرى؟

انتظر ..

ماذا لو كان كلام الجسَّاسة صحيحًا وأن هذا المداد له تلك القوة السحرية لوهبِ الحياة.. ماذا قد يعني هذا؟

هل يعني أنني يجب أن أستسلم لإله لا أراه، واهبًا إياه أحلامي وطموحاتي وكل ما أراه بنفسي من عظمة وتطلعات نحو غدٍ أستحق فيه أن أكون فوق الرؤوس.

أم أنني أنا نفسي واهب الحياة، ولولا أن يدي لمست هذا المداد لما صارت له تلك القوة الإلهية التي تزعم الجسَّاسة أنه يحويها؟

لم أقوَ على الانتظار أكثر.. قفزت من فوق مقعدي مندفعًا للخارج باحثًا بلهفة عن أي شيء يصلح لتجربة المداد عليه.. لمحت على بُعد جثة طائر تتنهاشه الطيور الجارحة.. لوحت لهم فطاروا تاركين الجثة متآكلة عفنة.. اختطفتها وهرولت داخلا كهفي..

قبضتُ حفنة من المداد واقتربت من الطائر الميت وهممت أن أنثر المداد فوقه وأنا أتمتم: " بسم الل.... " ولكن مهلًا.. ربما كانت هذه هي طريقة الجسَّاسة لخداعي.. هي تريد مني أن أذكر اسم إلهٍ لا أعرفه وأنا ألقي بالمداد.. هي تريد منِّي أن أجحد حق نفسي في الألوهية التي أصدقها، وما إن أفعل حتى أصدق تمامًا هذيانها.. إذن لن أفعل ما قالت.. لن أفعل..

ببطء رفعت هامتي ووجهت عيني الواحدة على الطائر الميت.. ونثرت المداد على الطائر وأنا أهتف في عظمة وتكبُّر:

" باسمي أنا أحييك "

تابعت عيني تساقط المداد الرملي على جسد الطائر وضربات قلبي تتصاعد حتى شعرتها في حلقي.. وبدا لي دبيبها كآلاف المطارق في مؤخرة رأسي.. ألهثُ في قوة وتتلاحق أنفاسي وأنا أرى لحظة تلامس المداد لجسد الطائر الذي تألق لونه وبدا وكأن ضوءًا ذهبيًا أحاط به في قدسية..

وفي مشهدٍ سحري تتابعت ذرات المداد وهي تختلط بجسد الطائر الميت فتدور وتتداخل وتبني ما أكلته الجوارح فيعود الطائر سليمًا وكأنه خُلِقَ من جديد، وفجأة ينتفض الطائر واقفًا صائحًا محدقًا في عيني الواحدة في فزع..

أتراجع في ذعر حتى إني أسقط أرضًا وقد بدا لي الأمر أكبر من كل توقعاتي.. نعم.. أكبر بكثير.. كم كان هذا رائعا.. مدهشا.. إلهيًّا..

ثوانٍ معدودات.. والطائر يصيح وينتفض.. ثوانٍ اتسعت فيها ابتسامتي، ولمعت عيني كآلاف الشموس.. وتراءت أمامي رؤى طامحة لما سوف أكونه وما أنا عليه ..

ثوانٍ دارت بي في الزمان والمكان وانقطعتُ فيها عمّا حولي، وحملني الخيال إلى أبعد أبعد ما يصل إليه الخيال.. فأنا إله..

وفجأة سقط الطائر بلا حياة.. قاطعًا كل أحلامي وطموحاتي ومفاجِئًا إياي أني لستُ إلهًا كاملًا.. فأنا لا أستطيع منح الحياة إلا لثوانٍ معدودة بعدها يعود كل شيء لأصله.. لم أصدِّق هذا، أسرعت إلى الخارج باحثًا من جديد.. مرة.. ومرة.. ومرات.. وفي كل مرة نفس النهاية ونفس الموت..

سقوط تلو سقوط.. طائر.. سمكة.. قط بري.. ثعلب.. دودة.. ثعبان..

استلقيت على ظهري ألهث في عنفٍ ومن حولي جثث عِدة ..

وبدأت أقبل بما وصلت إليه.. فما أملكه الآن لا يعدو كونه دليلًا على ألوهيتي.. وببعض المهارة والحسابات يمكن أن أستفيد به في رحلتي القادمة للمجهول.. لذا سأرضى الآن بما لدي.. وبكوني نصف إله.. فهذا يكفيني في هذه اللحظة.. وربما فيما بعد سأصير إلهًا.. كاملًا .

....

انتصف الليل ..

وسكت الكون من حولي إلا من صوت تلاطم الأمواج وتكسُّرها على صخور الجزيرة.. وأصوات حيوانات الليل عواءً وحفيفًا ونعيقًا..

لم أنم هذه الليلة قَط.. فأنا وسط ابتكاراتي ومخطوطاتي التي صنعتها من جلود الحيوانات النافقة.. أُعد خطتي للأيام القادمة..

ورحلتي التي يجب أن تبدأ من حيث البداية الأولى.. من السامرة..

كنتُ أرتب أفكاري وأولوياتي.. ومن أول أولوياتي أن لا أترك شيئًا ورائي.. لا يجب أن يدرك أحدٌ عني شيئًا وخصوصًا على هذه الجزيرة ..

يجب أن أمحو كل شيء ..

أسرعت إلى حيث الألواح محاذرًا أن أنظر إليها وأخذت أجمع المداد في نهمٍ، قشعريرة تسري في بدني كأسراب من نمل نشط..

وفي صرَّة من جلدِ أرنب بَرّي صررتها وأحكمت ربطها وأسرعت إلى كهفي فقد أتممت أولى الخطوات وبقيت أهم خطوة.. الجسَّاسة .

أخذت أصنع من حجرٍ صلب طرفًا حادًا بقدر ما أستطيع، وما إن انتهيت حتى ربطته في غصن قوي.. والتقطت غصنًا آخر ولففت عليه قطعة من

فروٍ عندي وغمستها في النار وهكذا أصبح عندي سلاح ومشعل، الآن يمكنني شق أغوار الليل باحثًا عن تلك اللعينة..

خرجت من كهفي مهتاجًا عازمًا على أن أقتل تلك المُشعرة.. وبهذا أكون قد تخلصت من كل من يعرف حقيقتي ويدرك من أنا ..

ناهيك عن كرهي الخالص لها وشعوري بالنشوة لمجرد فكرة أنني سأفتكُ بها ..

أعرف أني قوي جدًّا..

ولكني أعرفُ أنها أقوى؛ فقد اختبرت ذلك بنفسي ..

لذا عليَّ أن أفاجئها.. نعم ..

أنا أعرف أين سأجدها..

إنها دائمًا ما تجلس طوال الليل على التبةِ المواجهة لكهفي معطية ظهرها لباب الكهف قاطعة بجلستها كل أمل لي في إبصار المستقبل البعيد..

سأطعنها في رقبتها وأجلس متشفّيًا أراقب دمها يسيل ..

ومع كل قطرة دم تسقط منها أرضا تتسع بقعة أحلامي ويتضح طريقي

وتصبح اختياراتي أكثر ثباتًا..

هذا طريق لا رجعة فيه ولابد أن يبدأ بقتلها ..

هذا ما اخترته لنفسي..

هذا ما أريده وأرغبه..

هذا ما أنا عليه وما أريد أن أكونه حائزًا على القوة المطلقة وعلى المستقبل



وعلى كل شيء ..

هكذا انتهت حيرتي وعرفت عدوّي وتشرَّب جسدي للنخاع بعظمتي وبقدرتي كما ستتشرب أرض هذه الجزيرة بدم الجساسة القذرة ..

إحساسي الآن يفوق الوصف..

الآن أشعر أني أطول قامة وأكثر قدرة وأقوى بصرًا..

الآن يمكنني أن أنظر لانعكاس صورتي على صفحة الماء فأري شخصا أكثر جمالا واكثر صفاء لا قبح به ..

الآن صرتُ كاملًا .

* * *

- 13 -

الإصرارُ يفتحُ أبوابًا عِدة.. ويغلقُ أبوابًا عِدة ..

فها أنا أراها أمامي -في جلستها المعتادة معطية ظهرها المُشعر للعالم غير عابئة أو مبالية- هي مثلي ربما سجينة- أراها وفي يدي سلاحي وكل ما يلزمني فقط لأنهي كل هذا أن أدفع بالحجر المدبب في عنقها اللعين.. إلا أني لا أستطيع !!

أرفع يدي وأدفعها نحوها في إصرار..

إلا أن شيئًا ما يمنعني وكأن آلاف الأيادي تمسك بيدي في قوة ..

ماذا يحدث؟؟

أي سِحر يدفعني بعيدًا عن تلك الحيوانة المشعرة.. إن كانت هي هنا لتحميني.. فمن ذا يحميها مني؟؟

أوَ تبقي دائمًا الجسَّاسة هي الخط الفاصل بيني وبين أحلامي، بيني وبين ألوهيتي ..

بيني وبين الحرية؟؟!!

أتقدم.. أتراجع...

أتقدم..

أتراجع ....

وهي في جلستها الخرساء المستفزة ..

"لن تستطيع "

قالت دون أن تلتفت وكأنها تراني.. وكأنها تسمع أفكاري..

قالت لتقطّعني إربًا وتنثر أشلائي التافهة محطِّمة موج غروري على صخور الحقيقة ..

أنا لستُ كاملًا..

"لستَ مُسلطًا عليَّ.. كما أنني لستُ مسلَّطة عليك ..

نحنُ الاثنان طرفان على طريقين لا يتلاقيان أبدًا.. "

والتفَّت:

" ألَمْ أُخبِرك أني مأمورة؟؟ ألَمْ أُخبِرك أنك مُخيَّر؟؟

ألَمْ أعلِّمك حروفَ الكلام لتقرأ أمرَ ربكَ لك؟؟

ألَمْ أنقل لكَ رسالةَ ربك وأريك إشاراته؟ ؟

لماذا لم تفهم؟؟ لماذا إصرارك الأبله على أن تعاند خالقك.. وتمشي طريقًا لا يأخذك إلا لنهايتك المحتومة؟ "

بدا كلامها بغيضًا فقفزتُ نحوها محاولًا استنفار قوتي لأدفع بالحجر إلى عنقها لأخرِسها؛ فقفزت نحوي تزأر في عنفٍ رجَّ الجزيرة من حولي وشعرت كأن آلاف العواصفَ قد دفعت بي إلى الخلف في عنف ..

أسقطُ أرضًا ..

يسقط من يدي سلاحي.. وينطفئ المشعل لأري عينها النارية تحدِّقُ في وجهي وهي تهدر صارخة:

" لِمَ لَم تفهم ... ماذا دهاك.. لقد مُنِحت كل شيء فأبيتَ إلا أن تكون كافرًا بالله، متمرّدًا على حكمه.. أي غباءٍ هذا.. كان لديك كل شيء وجزيرةٌ ملكك ترتعُ فيها.. ولكنك تريدُ المزيد ..لجأت إلى نفسك وكان الله ملجأك.. وبنيت بيتًا من وهمٍ فصرت كالعنكبوت إذا بَنَتْ بيتًا.. ألا إن أهونَ البيوتِ لَبَيت العنكبوت"

وأمسكت بي فرفعتني عاليًا كأني طفل ..

" ليتني أستطيع أن أقتلك.. ليتني أستطيع أن أنهش وجهك البغيض الناكر للحق ..

ها أنت يا ابن اليوم أصبحت ابنًا للغد.. واخترت مصيرًا أسود..

كانت علامتي معك، ليلة لا تنام فيها.. تحاول بعدها قتلي.. وهذا آخر عهدي بك

وآخر عهدك بي.. إلا أن يشاء الله .."

أخذت أرتجف في قوة وبدا وكأني سأموت من فرطِ الخوف وهي تهزني في عنفٍ، وكلماتها تتصاعد لتصبح سوداءً كقلبِ الليل قاطعة كحد السيف ..

"اعلم أنك مغادر للجزيرة غير عائدٍ لها إلا قبل عهد النبي الخاتم.. إن شئتَ لا تعُد.. ولكني أعلم أنك عائدٌ وأن لك معي لقاءً..

رُفِعَتْ الأقلام وجفَّت الصُّحف يا سامريّ.. وهذا فراق بيني وبينك "

....

نفسُ الصمت الملعون.. نفس الخوف.. ونبوءة تتحق وأخرى تُلقى في وجهي كصخرةٍ تسد الطريق فلا أرى خلفها شيئًا..

ها هي الجساسة.. قاهرتي.. تبتعد ولا أجرؤ أن أتبعها..

لهاثي المتصاعد يهدأ..

وخوفي يتبخر في بطء..

أبحثُ في توتر عن سلاحي ومشعلي.. أجدهما

أستند على الغصن الجاف وأقوم ..

" إن كان ما تقوله صحيحًا وإني مغادر.. فلأترك لها إذن تذكارًا مِني..

* * *

- 14 -

للجنونِ لغةٌ خاصة تتعلمها مع مرور الأيام، لا تحتَاج لأحدٍ كي يعلمك كيف تمارس جنونك الخاص وكيف تتهور إلى أقصى درجة ..

فقط يكفيك أن تسيطر عليك فكرة أنك ليس لديك ما تخسره وتطلق لنفسك العنان.. عندها سترى من نفسك جنونًا سيدهشك ..

بجنون مُطلق أشعلتُ مشعلي المُنطفئ.. وانطلقت في أنحاء الجزيرة وأنا في أوجّ غضبي وسخطي.. لم أكن أعرف أن للغضب ذلك الطعم الرائع الشهي..

فالغضب كالنار التي تملأ داخلك وتعطيك إحساسًا دافقًا بالقوة والقدرة على فعل أي شيء.. وكل شيء

كان يحركني غضبٌ محمومٌ.. ورغبات دفينة وكره بالغ.. وكنت أشعر بسعادة مطلقة لا وصف لها إلا أنها كفقاعات تتصاعد من قلبِ عينٍ ماء ساخنة فتتصاعد للسطح فتنفجر في نعومة مُطلِقة حرارةً وبخار ..

بدا كل شيء حولي رائعًا وساحرًا ومنيرًا وأنا أعدو في أنحاء الجزيرة مشعلًا كل ما حولي.. أشجار.. حيوانات.. طيور.. ورود ..كل شيء ..

كل شيء ..

كانت الحيوانات تجري في ذعرٍ ألقى في داخلي نشوة ما بعدها نشوة.. وأنا أطاردها لأشعل النار في فرائها لتجري بدورها مشعلةً للنار في كل ما تلمسه أو تقترب منه ..

بدا المشهد بالغ الروعة.. لا وصف له.. فقط يجب أن تراه لتشعر ما أشعره الآن من سطوة..

ها أنا أعدو وأعدو.. وأعدو.. وعلى وجهي ابتسامة واسعة.. مطلقًا من آنٍ لآخر ضحكاتٍ جذلة.. والأشجار تشتعلُ من حولي وتتساقط..

"أيتها الجزيرة التافهة.. الكافرة.. ها أنتِ تنهارين عند أقدام ربِّكِ القوي"

كم وددتُ أن أرى وجه الجسَّاسة الآن وأسمع كلماتها الحكيمة الوقحة

" مَن ربُّكِ الآن يا لعينة.. مَن ربُّكِ الآن.. "

تصعد الغزلانُ والكواسر معًا إلى التلال في مشهدٍ مهيب وهي تتصادمُ مشعلة للنار في بعضها البعض.. كم هذا مضحكًا.. كم هي غبية.. لا أظنني ضحكتُ من قبل كما ضحكت اليوم ..

دقائق معدودات.. وسكن كل شيء..

النيران في كل مكان.. لا صوت يقطع شهوتي المتصلة واستمتاعي بلعبة الجنون التي اكتشفتها اليوم فقط..

وأنا فوق التبةِ المطلة على البحر والتي تعودت الجسَّاسة أن تبيت عليها ليلًا.. أرقبُ الإشارات الأولى لأنوار الصباح ..

ومن حولي بعضُ الأشياء التي اخترتها بعناية من كهفي قبل إشعالي النار فيه..

ها هي الشمس تصعد من قلب البحر الكبير وكأنها شمس نصري وعلوّ شأني، تصعد آخذةً بيدي نحو مجد أكبر ومستقبل لا يشاركني فيه أحد، طامسة ماضيًا مشوَّهًا ولعينًا محفوفًا بعشرات الأمور الغامضة مستحيلة الفهم..

أحدّقُ في البحر الواسع على حدِ النظر.. وألتفت للجزيرة الرمادية والدخان يتصاعد منها في بطء.. ما بين هنا وهناك تتحرك عيني الواحدة ..

" مرحى يا سامري.. ها أنت تصنع قدرك..

ها هي شمسك في الأفاق تلوح .."

أشعرُ بتعبٍ بالغ..

مجهدٌ أنا ..

أهبطُ على ركبتي.. أتهاوى..

أنام .

....

أصوات متداخلة..........

صفير .... أضواء ....

أصوات.......... أحدٌ يحملني.......... أتشبث بصُرّة المداد في جنون.. أضمها إلى صدري ...

أهتز بنعومة بالغة........ ترتطم ذرات ماء بوجهي ....

الشمسُ تلفحني .... صوت أمواج تتلاطم..........

ماذا يحدث؟؟؟

أريدُ أن أصحو..

افتحُ عيني متألمًا..

ألمحُ وجوهًا عدة حول جسدي..

من خلف الوجوه يصفعني ضوء الشمس ....

أغمض عيني.. أفتحها ..

أنا في قارب.. أنا في قلب البحر ..

لا أستطيع النهوض ..

ينهارُ جسدي ..

أغمضُ عيني ..

أغرق في نومٍ عميق ..

....

" أنا منك.. وأنت منّي "

شعلة النار تتكون شخصًا...

أطفو.. أطير ..

تأخذني الريحُ نحوه..

يواجهني ..

هذا أنا ..

لا ليس " أنا " ... إنه شيء آخر.. ملامحه تتحور.. وتتبدل.. إنه وجهٌ قبيح، أكثر قبحًا منّي.. مُشعِر.. ذو أنياب.. قرنان صغيران يبرزان من مقدمة رأسه، إنه يقترب مني.. أنفاسهُ الخانقة الحارة تسقط على وجهي..

عيناهُ المرعبتان.. الناريتان تحدقُان في عيني الواحدة ..

يبتسم في جذل..

"أنا منك.. وأنت منّي "

أحاول أن أبتعد.. لكن شيئًا ما يربطني به.. يجذبني إليه.. أدورُ حوله كما يدور فرعُ الشجرة في الدوامات البحرية الصغيرة ..

هو يتبعني بعيونه..

" أنا في انتظارك يا رفيقي.. هناك.. في البر- مود البعيد.. لا تتأخر "

أحاول أن أتكلم يخرج صوتي مختنقًا مبحوحًا:

" من.. أنت "

يبتسم ابتسامة مقيتة صفراء ..

يشير نحوي فأُقذَفُ بعيدًا كأنه يلقي بي إلى العدم..

تبلعني الدوامات ..

أغرق في ظُلمات لا تنتهي..

أصرخُ ..

أستيقظ ..

* * *

- 15 -

عبر الشقوق الصغيرة تسرَّب ضوء الشمس إلى وجهي.. واهتزازات مستمرة وهادئة تهدهدني في رفقٍ وقوة.. تسرَّبت رائحةُ البحر إلى أنفي وقوّى هذا الإحساس صوت تلاطم الأمواج من حولي..

استيقظت حواسي بشكل مفاجئ وأنا انتفض واقفًا، أدور فيما حولي في الحجرة الخشبية ذات النوافذ الدائرية المغلقة بزجاج خشن مصمت..

دُرتُ في كل الأنحاء لأدرك أين أنا ..

ولكن نظرة من تلك النوافذ أكدت لي أني في عرض البحر ..

ماذا حدث؟؟

من ذا أتى بي إلى هنا؟ ؟

استعادت ذاكرتي الوجوه الكثيرة التي أحاطت بوجهي بعد انهياري على الجزيرة في لمحات هي بين النوم واليقظة ..

كل شيء مموَّهٌ.. ومشوشٌ

تأملتُ ما حولي..

مجموعة من البراميل الضخمة التي تحوي أشياء لا أعلم ما هي.. مربوطة بعضها إلى بعض بحبال سميكة ..

يتدلى من السقف مصباح صغير به شمعة مطفأة.. وعلى جوانب الحجرة مجموعة من السلاسل الحديدية الضخمة، ملابس وأقمشة متسخة وبعض الأطعمة الفاسدة ذات الرائحة النفاذة..

أين أنا؟

في أحد الأركان رأيت صُرّة الفرو التي حملت فيها المداد من الجزيرة.. كانت ملقاة بإهمال بما يوحي أن أحدًا لا يدري أهمية ما بها.. هذا جيد..

ولكن أين بقية حاجياتي؟؟

بحثت بشغف عن بعض ما جمعت من الجزيرة ولكن لم أجد شيئًا ..

أسمع بعض الأصوات تتسرب إليَّ كما يتسرب الماء عبر الشقوق العديدة بين خشب الأرضية القذرة التي أستلقي فوقها ..

ملأتني الاهتزازات المنتظمة بأحاسيس تتأرجح فيما بين الخوف والغثيان

ومعرفتي لما أنا بصدده وجهل تام لكيفية فعله..

كان عليَّ أن أستجمع شجاعتي وأتحرك لآخذ أولى الخطوات وأفتح هذا الباب.. لسببٍ ما بدا هذا الباب الخشبي القديم والذي يفصل مكان وجودي عن كل ما يجري بالخارج- بدا وكأنه أول العوائق وما إن أقوم بفتحه حتى تنساب حياتي بعدها بلا توقُّف ..

بدا الباب كخطوة هامة ولابد من اتخاذها وبدا ترددي في أن أتجه نحوه كترددي في قتل الجسّاسة ..

فلسبب أجهله سيكون عبوري بوابة هذا المكان النتن طريقًا طويلًا لن أستطيع الرجوع فيه وما إن أبدأه حتى سيكون عليَّ أن أكمله مهما كانت العواقب..

استجمعتُ قوتي ووقفت وأنا مازلت أحتضن صرة المداد وأضمها إلى صدري بقوة وكأني أستمدّ منها شجاعتي وخطوت خطوات ضيقة نحو الباب، مددت يدي ببطء وأدرت المزلاج وسحبت الباب للداخل..

كان صرير الباب أول صوت أسمعه امتزج بالضوء الدافق الذي هجم عليَّ في حجرتي المظلمة ليبتلعني في نهم مصحوب بصخب حاوطني وأنا أتحرك مع ممر ضيق مليء بحجرات تشبه حجرتي وينتهي بدرجات خشبية تأخذني إلى السطح..

تلاطمت الأفكار مع صوت تلاطم الأمواج وكأن عقلي هو ذاك البحر الزاخر الذي طالعني بصورته الجميلة القاسية راميًا في صدري قشعريرة وفي حلقي غُصة..

كانت عيني مازالت تستوعب الضوء الرهيب المتمثل في صورة واضحة لأفق لا ينتهي وامتداد لصورة السماء المتصلة بالبحر بلا نهاية ولا بداية. سرتُ متحسسًا خطواتي وأنا أدرك شيئًا بشيء أني على سفينة متوسطة الحجم كما عرفت فيما بعد أن السفن لها أحجام وأنواع شتى.. وسيكون لهذا معي شأن كبير..

سرتُ وكأني أتعلمُ المشي وعلى جانبي الطريق كان سور السفينة والعديد من الأشخاص الذين يرمقونني بنظرات غير مفهومة بينما تتدلى حبال وأذرع خشبية من كل مكان.. كانت السفينة مقطعة في أجزاءٍ شتى بأعمدة خشبية أسطوانية عالية تتصل فيما بينها من أعلى بمجموعة من الحبال

بينما أشخاص يتقافزون من حبلٍ لحبل ليفردوا مساحات واسعة من قماش أبيض متصل كخيمة بالغة الضخامة..

كان الرجال يتهامسون بينما أمرّ بجوارهم في حذرٍ وهم يتحركون باستمرار منشغلين بأعمال لم أكن أدرك وقتها كُنهها ..

لم أدرِ أين يجب أن أتوقف أو ماذا عليَّ أن أفعل.. لم أكن قد شاهدت هذا العدد الهائل من الأشخاص في مكان واحد من قبل وبالطبع لم أتعامل مع بشري منذ مولدي وأنا الذي كنت نائمًا معظم الوقت ..

كنتُ خائفًا وللحظات ندمت على تركي الجزيرة.. مملكتي الجميلة لأرمي بنفسي في غياهب مستقبل نذرتُ نفسي فيه للهلاك كما أكدت لي الجسَّاسة اللعينة من قبل.

استندت على أحد الأعمدة وعيني تدور في كل الاتجاهات والأصوات تندفع نحوي مخترقة أذني بوقع كالطبول.. مختلطة.. ممتزجة.. مجنونة..

سددت أذنيَّ بكلتا يدي فسقطت الصرة أرضًا.. انحنيت متلهفًا لألتقطها ولكن يدًا سمراء التقطتها من على الأرض ورفعتها نحوي.. ترددت لحظة ولكن نظرة ودودة من صاحب اليد شجعتني.. اختطفت الصرة وضممتها مرة أخرى إلى صدري وابتسامة العملاق الأسود الأصلع ذي الحلقة المعدنية في أذنه تتسع وهو يضع على كتفي قماشة سميكة :

" الجو باردٌ هذا الصباح.. وأحسبك تشعر بالبرودة.. "

كان يتحدث العبرانية القديمة.. لا أعرف كيف علمت وأنا الذي لم يتساءل من قبل أي لغة كانت تحدثني بها الجسَّاسة ..

لم أردّ على الرغم من اني أعرف هذه اللغة

"عندما وجدناك مستلقيًا في عرض البحر ظنناك ميتًا، ولكن تشبثك بتلك الصرة جعلنا ندرك أنك حي "

لجّمتني الدهشة..

إذن فقد التقطوني من عرض البحر؟؟

ولكن أين ذهبَتْ الجزيرة.. أين؟؟

من ذا ألقى بي إلى عرض البحر؟؟

يبدو أن دوامة الغرائب التي حاوطت حياتي لن تنتهي أبدًا ستظل دائمًا تدور بي بلا توقف

"هل غرقت سفينتك؟ أم أنت سقطت عنها؟ من أي البلاد أنت؟؟ هل أنت أخرس؟؟.. هيًا قل شيئًا "

لم أجد القوة لأنطق.. فتفرس في وجهي صامتًا ثم لم يلبث أن هز كتفيه مستسلمًا وأعطاني ظهره ليبتعد

" سامرة "..

نطقتها بصوت طفل تعلم توًا الكلام فتوقف العملاق الأسمر والتفت ناحيتي:

وقال بودٍّ:

" أنت من السامرة إذن.. يا فتى أنت تبعد آلاف الأميال عن بلادك.. أظنك ستقضي معنا بضعة أشهر قبل أن نصبح قريبين من تلك المنطقة.. خذ اربط هذه على عينك المصابة "

مدَّ يدهُ بخرقة قماشية سوداء.. لم أمدّ يدي.. فتحرك هو نحوي فجفلت ولكنه أكمل طريقه نحوي وهو يلفّ رأسي بالخرقة بشكل مائل ليخفي عيني غير المبصرة لتبقى عيني المتضررة بارزة جاحظة ..

انتهى من ربطها نظر إليَّ للحظة

" يا صاح كان منظرها بشعًا، ولكنها الآن أفضل.. عمومًا نحن أبناء البحر، تعودت عيوننا الأمور الغريبة.. تعالى لأعرِّفك على السفينة "

سحبني من ذراعي بلطف وهو يتحدث بلا توقف وكأنه يعرفني منذ زمن.. فلم أشعر معه بغُربة واستسلمت لجولاته المتعددة وهو يتحرك بي بلا توقف ليعرّفني على البحارة ويريني أجزاء من السفينة.. أعترف أنه جعل من وجودي على السفينة بصحبة البشر أمرًا مقبولًا ولكنه لم ينسِني من أنا وماذا يجب أن أكون

"ما اسمك؟ "

لم يسألني أحد عن اسمي من قبل، ولكن كانت الجسَّاسة تناديني بال..

" ساموريّ "

"حسنًا يا ساموري أنا ..... "

من فضلك.. لا تسألني عن اسمه.. فقد تعودت منذ زمن أن لا أذكر الأسماء، هذه أمورٌ عاطفية؛ فالأسماء تجعلك تهتم.. وأنا قطعت عهدًا على نفسي منذ زمن أن لا أهتم لأحد سوى ..

" أنا ".

***



مرت شهور وأنا على السفينة ..

ولم أكُن من قبل أدرك الزمن أو ألقي بالًا لمروره.. أخبرني العملاق الأسود أني أبدو في أواخر العشرين مما يعني أني قضيت وقتًا طويلًا على الجزيرة دون أن أدرك هذا ..

ولكن كان هذا فيما مضى؛ فمنذ الآن يجب أن أدرك أهمية الزمن وأرتب لكل وقت خطة فإن كان ما قالته الجسَّاسة صحيحًا فهذا يعني أن الزمن سيمضي بالنسبة لي بطيئًا، وأني سأظل على عمري الذي غادرت عليه الجزيرة، كما أني سأحضر زمنَ من تصفهم بأنبياء الله وهم كما أخبرتْني ثلاثة..

إذن يجب أن أتلمس وجودهم وأدرك أماكنهم؛ لأني إذا ما أردت أن أثبت استحقاقي للألوهية فإنهم سيكونون العائق الكبير أمامي وحربي الحقيقية ستكون معهم..

وهكذا بدأتُ ترتيب أموري؛ فأولا عليَّ أن أتعلَّم.. أتعلَّم كل شيء وأسمع وأرى وأتفهم.. وأن لا تمر عليَّ شاردة أو واردة دون أن أحللها، وكذلك عليَّ أن أخفي الكثير من قدراتي عن من حولي كي لا أثير الشبهات ..

وعلى هذا، بدأت أراقب كل شيء حولي في صمتٍ وترقُّب.. وقد لفت هذا أنظار من حولي ولاحظت أنهم أصبحوا أكثر اقترابًا مني وأكثر اهتمامًا بي، ربما لأنهم آلفوا وجودي وربما لأني بصمتي قد أزلت كل مخاوف سكنت في داخلهم بخصوص التقاطهم لي من الماء؛ حيث ادّعيتُ أني لا أذكر شيء سوى من أين أنا.

بعضهم فسَّر هذا على أنه صدمة من البقاء عائمًا على وجه الماء لأيام، والبعض قال إنها لابد ضربة شمس..

وبعضهم أنِسَ مني الطاعة والصمت؛ فلا يلفت النظر أكثر من الغريب الطائع الصامت..

وهكذا تعلمت أشياءً عن أبناء البشر وكيف أنهم لا يكرهون أكثر ممن يشعرون إنه مصدر خطر عليهم أو من يشعرون بتفوقه ونبوغه.. فكان إخفائي حقيقتي هو أهم أسباب قبولهم لي وانجذابهم لهذا الغريب المشوَّه..

تعلمت الإبحار، وقراءة النجوم واستعمالها في معرفة الطرق البحرية فاتضحت لي معالم الأشياء وعرفت أن هذا الفضاء المائي له أسرار ولغة ومسالك ..

وأطلعني من يسمونه بسيد السفينة وهو قائد المجموعة، على لفائف جلدية منقوش عليها طرق بحرية وأسماها خريطة وأخبرني أنه قد ورثها عن جدوده الذين رسموها.. وأخبرني أن كل منهم -الأبناء والأحفاد- يضيف لها طريقًا اكتشفه أو خبرهُ بنفسه وأشار بفخر إلى عدة لفائف قد رسمها هو بنفسه، أعجبتني فكرة اكتشاف الدنيا وعلمت أن هذه الخرائط ستنفعني في يوم ما..

كان كل ما تعلمته على السفينة ثمينًا، ولكن كان أثمن ما تعلمته عليها هو كيف أخدع الناس، وكيف أستخدم ما في نفوسهم ضدهم.. وكيف لا يبدو مظهري موحيًا بما يجري في داخل نفسي..

كانت السفينة تعمل في نقل البضائع من مكان إلى مكان فيما يسمونه التجارة وهو لفظ يطلق على تبادل الأشياء بين أشخاص عدة، أما عن طريق إعطاء شيء مقابل شيء أو مقابل قطع الذهب أو الأحجار النفيسة..

زادت معرفتي بالعالم من حولي فبدا الفضاء أقل اتساعًا، وعلمت أني فيما بعد سأملك هذا العالم في يدي إذا ما علمت عنه ما لا يعلمه غيري.. وهكذا مع كل معلومة جديدة كان يرقص قلبي فرحًا وأشعر باقترابي من هدفي ..

كانت الوحدة رفقتي العزيزة وملاذي حين أُحب أن أذكر من أنا وما يجب عليَّ فعله.. ولم يكن يؤرّقني شيء سوى الكابوس الذي لم يكن يتركني.. وهو واحد في أساسه يضاف إليه بعض المشاهد من حينٍ لآخر ..

فدائمًا أرى أني طائرٌ بلا هدف ثم يظهر الشيء الذي يتغير شكله باستمرار؛ فأحيانًا أراه " أنا " وأحيانًا كيانًا آخر مرعبًا وبغيضًا.. ومع تغيُّر أشكاله ظل مطلبه دائمًا واحد.. كان يريدني أن أذهب إليه.. وكان دائم النداء إنه مني.. وأنا منه !!!

وأيضًا لم تتركني الجسَّاسة اللعينة؛ فكانت دائمًا في أحلامي أراها تنقض عليَّ وتأكل وجهي؛ فأقوم مفزوعًا لاهثًا وأنا أشعر أن آلافَ المطارق تضرب قلبي.. وأحيانًا أرى أني أقتلها وأُخرِج قلبها وأبتسم وأنا أراه ينبض بين يدي..

" كان هذا حُلمًا جيدًا "

" متى نصل إلى أرض السامرة"

كنتُ أسأل سيد السفينة باستمرار.. وكان يجيب في اقتضاب:

"إن البحر لا أمان له.. نحن لا نخبر أبدًا متى سنصل إلى بر.. نحن نحترم البحر ذلك الجبار الذي لا يُقهَر.. وهو يرد احترامنا له بأن يصلُ بنا إلى الأرض في الموعد الذي يختار "

وهكذا دخلَتْ كلمة جديدة إلى قاموس كلماتي القليلة " الصبر "

وعلمت أن لكل شيء موعدًا وأن الشخص يجب أن يعرف قوة عدوّه وأن يحترم قوته كي يتمكن من هزيمته..

مرت الأيام تباعًا، وكنتُ قد بدأت أمارس ما تعلمته من فن الإبحار وكنتُ جَمُ النشاط لا أتعب ولا أتوقف حين يتوقف الآخرون، أقفز من حبل لحبل لأنزل شراعًا أو لأرفعَ آخر..

أراقب الدفةَ أحيانًا وأقرأ النجومَ أحيانا أخرى ..

أنظّف أرضَ السفينة أو أقوم بصنع الطعام مع طباخين السفينة ..

أنظّف البضائع من الحشرات أو أنصبُ كمائنَ للفئران.. أو أجلس مع طبيب السفينة وهو رجلٌ عالمُ بالنبات وأسرارها، يقوم بعلاج البحارة من أي طارئ.. كنت قد أعجبت بعمله وساقني الفضول إلى حجرته أكثر من مرة لأراقبه وهو يصنع من النبات ترياقًا لكل شيء ..

" هذا يشفي دوَّار البحر.. فقط القليل منه.. وهذا يعالج الأرق.. وهذا لآلام المعدة.. وهذا منوّم وهذا مهدئ وهذا منبه.. وهذا سُم ... "

التقطت أذني كلمته الأخيرة فسألت :

- ماذا يفعل هذا السُّم؟

- هذا يقتل أضخم إنسانٍ في لحظات.. يكفي فقط أن يضاف إلى طعامه أو شرابه.

مممم.. إذن فهو سلاح.. يمكن أن أضمه إلى قائمة الأسلحة لدي.. ولكنه سلاحٌ صامت لا يراه عدوك ولا يلحظ أنك تمسك به في مواجهته.. بل إنك لا تحتاج أن تواجه أعداءك وأنت تملك مثل هذا السلاح.. بل يمكنك أن تقتل به عدوك وأنت تضحك في وجهه وتمازحه وتدعوه إلى وجبة شهية !!

أعجبني هذا.. وحفظته في عقلي مع مئات المعلومات التي رشفتها من بحر هذه السفينة العامرة بكل شيء..

"كم أنا محظوظ "

وابتسمت ..

كان يبدو كل شيء مثاليًا

لم يكن هناك ما يعكر صفوي على هذه السفينة إلا شخصٌ واحدٌ.. عجوزٌ..

شديد النحافة طويل اللحية لا يتكلم أبدًا.. يحترمه الكل ويبجلونه ولكن لا يجلسون معه، فقط يضعون له طعامه وشرابه بانتظام في مكانه المعتاد في أحد أركان سطح السفينة.. والذي لا يفارقه أبدًا..

لسببٍ مجهول شعرت تجاه هذا العجوز ما كنت أشعر به تجاه الجسَّاسة.. شعرت أنه يكرهني ..

لم يقم بأي شيء تجاهي لأبرر لنفسي هذه الأحاسيس، ولم يكن يفعل سوى الجلوس محدقًا في السماء نهارًا وليلًا..

أحيانًا كنت أراقبه خلسة فأجده يتمتم بكلمات غير مسموعة وهو محدق في السماء..

كنتُ فضوليًّا.. وكان شديد الغرابة ..

"مَن هذا العجوز "

سألتُ العملاق الأسود ذا الحلقة المعدنية في أذنه:

- هذا رجل مبارك.. يقولون إنه في السفينة منذ سنين.. إنه دائم النظر للسماء كما ترى.. لا يتكلم.. ولكن قال لي أحد عجائز البحارة إنه قد نطق مرة منذ سنين.

شعرتُ بفضول بالغ حاولت السيطرة علَيه كي لا يظهر على وجهي

- وماذا قال؟

ابتسم العملاق وقال في بطءٍ:

- كلام لا معنى له..

ومضى.. أمسكت به من ذراعه في قوة وأنا أسأل في لهفة لم أفلح في إخفائها:

- ماذا قال؟

رأيت الدهشة في عينه فخففت من قوة إمساكي لذراعه.. فتنهد وقال في بساطة:

- نظر إلى النجوم وأشار لنجمٍ يلمع وقال: لقد وُلِدَ..

شعرتُ بقلبي يكاد يقفزُ من جنبي وسألت مرتعشا:

- متى كان هذا.. متى؟

زادت الدهشة في عينيْ العملاق، ولكنه أجاب كمن يريد أن ينتهي من الأمر ويمضي:

- منذ ما يقرب من عشرين عامًا.. ماذا بك يا ساميّ.. هل تسمعني.. انتظر.. ماذا بك..

كنت أمضي بلا هدى.. تاركًا الرجل يهتف خلفي متسائلًا.. وقلبي ينبض كمئاتٍ من دفقات الموج حين تصطدم بالصخور..

فالآن عرفت أن أحدهم يعرف بأمري.. أحدهم على علمٍ بما يجري..

أحدهم يدري من أنا..

مدَّ البحرُ يديه قابضًا على قرص الشمس في إصرار والشمس في لونها الأحمر تهبط صاغرة بين أمواجه القادرة باستسلام وقد فرشت سطح البحر ببعضٍ من لونها الأحمر ليبدو كنزيف جرح أَبَتْ الشمس إلا أن تتركه كعلامةٍ أنها لم ترحل راغبة..

عشراتُ الحوادث في حياتي تجعلني أشعر أنني كتلك الشمس، تشدني أمواج أحلامي وطموحي لأغرق دون إرادتي..

أو ربما هكذا أحب أن أظن..

كنت قابعًا في حجرتي الصغيرة محدقًا في المصباح الشمعي الذي يتأرجح باستمرار بلا توقف.. وشعلة الشمعة الصغيرة تتلاعب بها الرياح التي تتسرب إلى الحجرة من الشقوق الصغيرة الموجودة في كل مكان..

كانت السماء رمادية وصفير الرياح يعزف لحنًا حزينًا أحفظه عنه ولطالما سمعته لليالٍ وليالٍ..

عبر النافذة الدائرية الصغيرة والمغلقة على الدوام رأيت السحب تتجمع سويًا، وتترابط فبدا وكأنها تحكم الحصار على نفسي وتضيف إلى كآبتي كآبة..

كنتُ قد أتقنتُ لغة البحر كما أتقنتُ لغة الطبيعة وأنا في جزيرتي.. والبحر كان يخبرني أن عاصفةً قادمة..

لم أكن الوحيد الذي يتقن لغة البحر بل كل من على ظهر السفينة.. كان الجميع يدرك أن عاصفةً في الطريق وكانوا يستعدون لها.

ولكن وحدي أنا كنت أدركُ أن الليلة هي ليلة الموت ..

لغةً خاصة هي ما بيني وبين الموت.. وتعاطُف واضح هو ما بيني وبين الهلاك؛ فكم من مرة قابلت كليهما وجهًا لوجه ولم أكن أنا الخاسر.. فقط خسروا من كانوا حولي..

أنا أقرأ هذا الآن في صوت الرياح..

حتمًا أرواحٌ سوف تُزهَق الليلة.. ولكن على يد من؟

كانت أفكاري تأكلني بلا رحمة.. وصورة الرجل النحيف المتأمِّل للسماء تقفز لذهني مرة بعد مرة.. هل كان يقصدني بكلامه؟؟

هل هو حقًا يدري من أنا.. أو يعرف شيئًا عن قصتي؟؟

لابد أن أعرف.. لابد أن أعرف.. طوحت بيدي في عنفٍ ضاربًا المصباح المعلَّق فانطفأت الشمعة، وعلى ضوء برق لامع رأيتُ صورتي منعكسة على النافذة الدائرية.. ومع صوت الرعد عرفتُ أن العاصفة آتية لا محالة..

" لا أحتمل المكوث هنا.. سأخرج "

* * *

- 17 -

الجميع في الخارج يصارعون العاصفة في إصرار.. أصبحت الرياح عاتية، والأمواج ترتفع لتصبح كالجبال فإذا بالسفينة تعلو وتعلو تكاد تلمس سقف السماء العالي حتى إنك تستطيع أن تلتقط أحد النجوم بيدك..

تتأرجح السفينة في قوة والكل من حولي يتساقطون ويقومون ليتساقطوا من جديد..

" رجل في الماء "

يتحرك الرجال ليلقوا بالحبال لإنقاذ من يسقط.. ولكن البحر الآن جائعٌ.. لن تستطيع أبدًا أن تمنعه طعامه ..

كانت الأمطار سياطًا لاذعة.. والرياح سيوفٌ حادة.. كان الجميع في حربٍ مع المجهول ..

" ارفعوا الأشرعة "

يتقافز الرجال في يأسٍ والرياح ترمي بهم في كل جانب.. يتخبطون..

"ألقوا المرساة.. حافظوا على اتجاه السفينة "

تتعالى النداءات كأن مصدرها العدم.. والرجال يحاولون أن ينفّذوا التعليمات بلا جدوى.. كانت عاصفة سوداء ولن يقدر عليها أحد ..

ضربتني الأمطار في عنفٍ ورمتني الرياح أكثر من مرة لأرتطم بأحد جوانب السفينة.. ولكني لم أكن عابئًا بما يجري حولي.. كان عقلي يقودني إلى اتجاه واحد ..

وفجأة أصبحت أمامه..

في جلسته المعتادة صامدٌ لا يهزه شيء.. بشعره الناعم الأبيض المنسدل وصدره العاري وضلوع صدره البارزة وذقنه بالغة الطول والبياض ..

تتناثر الأمطارُ من حوله وكأنها لا تمسه.. مازالت عيناه معلقتين بالسماء يتمتم بما لا يسمعه أحد..

كان مظهره أسطوريًا وهالات من ضوء ملوَّن تحيط به..

كان يبدو بمعزل عن كل شيء!!

صدمتُ تمامًا وتراجعت بضع خطوات وأنا محدِّق فيه بدهشة بالغة ..

من هذا؟؟

ماذا يكون؟؟

اقتربت منه بخطواتٍ مرتجفة ومددت يدي نحوه فشعرتُ بحرارة شديدة تتدفق من ناحيته وتحيطه بما يشبه الغلاف فلا يمسه شيء من مطر أو ماء أو أي شيء مما يدور حولنا من جنون وصخب.



" أنا أعرفك "

خرجت كلماته قوية حادة مباشرة، ولكنه لم ينطقها.. ولكني كنتُ أسمعها واضحة داخل عقلي:

"اجلس.. واسمع "

جلستُ كالمسحور لا أنطقُ ببنت شفة وعيناي معلقتان به ..

"أغلِق عينيك "

كانت أوامره محددة وصارمة لا تحتمل الجدل فأغلقتُ عينيَّ صاغرًا.. شعرتُ بحرارته تحيطُ بي وتفصلني تمامًا عمَّا يدور حولي.. خفتت الأصوات تدريجيًّا حتى سكتت.. انتهى المطر.. لا رياح تعصف.. لا ارتطام ولا تأرجُح.. كل شيء يسوده الثبات.. الهدوء يسيطر على الكون..

انتهى كل شيء ... لا عاصفة .

....

....

في عالمٍ سرمدي أطوف..

تحملني الأضواءُ على مهل..

تتغلغلني ألوانٌ ناعمة.. يغسلني الضوء الناعم وتحيطُ بي الألوان فلا أرغب في الوجود إلا في هذا المكان السرمدي ..

من بعيد يتحرك العجوز نحوي، مازالَ جالسًا، عيناه مسبلتان ومتعلقتان لأعلى، صوته يرن في داخلي دون أن يحرك شفتيه فأسمعه واضحًا دون أن يتكلم ..

"أنا أعرفك يا سامريّ.. وأكرهك.. لأني وانت نقيضان.. أنا الخيرُ والحِلمُ والتواضع وأنت الشرُ والغضب والكِبر.. انتظرتك عمري كله وأنا أعلم أنك أشرُ شيء لي.. تمامًا كما انتظرك والداك طوال عمريهما وأنت أشرّ شيء لهما.. لكنه.. مكتوب "

ملأَتْ اللهفة صوتي وأنا أقول في صوت مستجير :

"إذن أنت حقًّا تعرفني..! ولكن كيف تنتظرني طوال عمرك وأنت تكرهني "

بدا صوته مرتجفًا في خشوع :

- قلت لك.. مكتوب..
- أتعني أنك مجبرٌ على انتظاري؟
- مكتوب..

بدا صوتي غاضبًا وأنا أقول في ثورة :

- ولكن الجسَّاسة قالت اني مُخيَر.. فلما أنا مجبرٌ على لقاءنا

-أنت بالفعل مُخيَّر.. لك الحقُ أن تختار ما تشاء أن تفعل.. ولكنك في كل اختيار تقع بين الاختيار والمكتوب.. فإذا اخترت كان لك اختيارك لتقع بين الاختيار القادم والمكتوب.. وبكل اختيار تقترب أكثر من مصيرك المكتوب عليك فلا يصبح لك الاختيار.

- أنا لا أفهم شيئًا..

تمتمت في حيرة وقد أصبح كل شيء حولي هلاميًّا يحتمل آلاف الأفكار فانتزعني من أفكاري ليقول في هدوءٍ لا تشوبه شائبة:

" اعلم يا سامريّ أني مأمور.. ومُقدرٌ لي أن ألقاك لأهيئك لرحلتك الطويلة

وهذا من رحمة ربك عليك "

" أنا لا رب لي.. أمقت هذه الكلمات "

أسدُ أذنيَّ بكلتا يديّ.. إلا أن هذا لا يمنعه من الاسترسال ولا يمنعني من سماعه ..

"أنا معلمك للأيام القادمة.. بي ستسبق زمانك وعصرك.. وبي ستعرف ما لا يعرفه أحد.. وبي ستولد أمامك الاختيارات الجديدة.. واعلم أني فتنتك.. فإما أن تنتفع بما سأعلّمُك وإما ستضر.. وأول ما ستضرُ هو نفسك.. لتسقط بين الاختيار والمكتوب "

ألغازٌ ... الغازٌ لا تنتهي.. أما لهذه الحياةُ البشعةَ أن تتوقف..

" لا أريد أن أسمع.. لا أريد.. دعني.. دعني "

كأنه لا يسمعني أكمل في إصرار:

" أعلم أن هذه السفينةُ هالكة لا محالة.. وأن من علها مُغرَقون.. فاجمَع ما ينفعك منها وضعه في القارب الصغير فأنا وأنت مغادران "

- ماذا؟؟

إلى أين؟

بدا صوته باترًا لأي أفكارٍ في رأسي تدور:

- فقط أطع.. فمعي لا تملك إلا الطاعة.. لقد حان الوقتُ يا سامريّ.. فاصدع لما تؤمَر.. اصدع لما تؤمر.. "

أخذ صوته يتردد في عقلي ويبتعد ومع ابتعاده، ذابت صورة العجوز من رأسي وأنهار السرمد من حولي ورأيتُني أُرمى بعيدًا وكأني أُلقى من أعلى جبل.. لتبلعني دوامة سوداء..

....

العاصفة... الأمطار... البرق والرعد... أنا على السفينة... عاد كل شيء كما كان من قبل وها هو العجوزُ مازال جالسًا أمامي لم يتحرك.. مازال يتمتم ومازالت الأمطارُ تحولُ عنه فلا تمسه ..

كان الوضع أكثر صعوبة والسفينةُ تتأرجحُ في قوة بينما يعلو الصراخ من حولي.. ويعلو ويعلو.. يبدو أن الأمر صار خارجًا عن السيطرة.. وبدت نبوءةُ العجوز أقربَ للتصديق ..

جريتُ بكل ما أملكُ من قوة وأخذت أجمع أشيائي.. صرة المِداد.. بعض الملابس الثقيلة مما أعطوني إياه على السفينة، ثم هرعتُ إلى حجرة سيد السفينة وأحضرتُ الخرائط المرسومة على جلود الحيوانات..

كان الوضع من حولي أسوأ.. البعض سقط عن السفينة والبعضُ يحاولُ إنقاذهم.. والبعض يجري بلا توقف بلا هدف..

ولكن لا أظن أحدًا منهم عرف أن السفينة في طريقها إلى الغرق ..

أسرعتُ إلى حجرة الطبيب ..-ولم يكن فيها - حملت ما استطعت حمله مما عرفت قيمته.. قبضتُ على زجاجة السم وضعتها في الصرة ثم خرجت ..

وضعت كل ما في يدي في المركب الخشبي الصغير والذي مازالَ على جانب السفينة..

التفتُّ نحو العجوز فوجدته مكانه.. فكرتُ أن أتركه.. وبسرعة قفزت داخل المركب الذي يقبضُ عليه حبلٌ متينٌ ليبقيه في مكانه مُعلقًا في جانب السفينة ..

وما إن دخلت حتى وجدتُ العجوز قابعًا أمامي ..داخل المركب !!

لم أجرؤ على الاندهاش.. ولم أجد وقتًا لأفعل.. فما إن استقررت داخل المركب حتى انهار كل شيء ..

انقسمت السفينة من وسطها وكأن سكينًا حادًّا قطعها.. واندفع قاربي الصغير ليرتطم بسطح الماء في عنف.. وأمام عينيَّ المذهولتين رأيت البحارة يتساقطون بين الأمواج تسحبهم الدوامات الناجمة عن غرق السفينة.. ها هو الطبيب.. وهناك أرى سيد السفينة.. وعشرات الوجوه المألوفة.. و... العملاق الأسود الودود ... إنه ينظر إليَّ يستجديني.. ربما أستطيع أن أذهب إليه.. ربما أستطيع أن أمدّ يدي نحوه وأسحبه.. ربما ..

ولكن لا أظنني سأفعل.. ببطء سحبت المجدافين وبدأتُ في الابتعاد دون أن أنظر للخلف.. ومن ورائي كانت صرخات الرفاق تعلو وتعلو.. وأنا لا أبالي.. فلم تكُن أكثر من خطوة على دربي الطويل.. هم لن ينجوا كما تنبأ العجوز القابع أمامي في صمت..

وأنا لا يعنيني أصلًا إذا كُتبت لهم النجاة..

لقد تمت مهمتهم ..

وانتهى الأمر .

* * *

- 18 -

في بحرٍ من غضب وأمواجٍ من جنون أبحرت في مركبي الصغير تاركًا خلفي إرثًا من صراخٍ وموتٍ وحقد ..

وكأنه قدري الذي يلاحقني أو أنا ألاحقه -لم أعُد- أدري ..

والريحُ تعصفُ بكياني المرتعدُ كورقةِ شجرٍ في قلب زوبعةٍ خطرة لا تُنذر إلا بالغُربةِ والضياع ..

كانَ البحرُ أمامي ممتدًا بلا نهاية وجبال الأمواج المتصادمة تملأني بنشوة مجنونة وبرغبةٍ عارمةٍ لا تنقطع في طموحٍ يناديني ويشعرُ بي ويحتاجني أكثر مما أحتاجهُ أنا ..

ها هو قدري يأخذني من سفينة الموت إلى غدٍ مُظلم في صُحبةِ عجوزٍ يكرهني وأحسبُ أني أكرهه، ومع ذلك أشعر بسعادةٍ بالغة ألقتها في داخلي صيحات الموت والصراع الذي سبق غرق السفينة وتحوُّلها الرائع إلى أشلاءٍ متناثرة في البحر الأسود العميق ..

كان شوقي إلى غدي الذي أحلم به أقوى من آلاف العواصف وأقوى من الموت والضياع والخوف والحذر.. وكأنه شهوة شبِقة مجنونة ملأت نفسي بإحساسٍ أشبه بإحساسي وأنا أحرق الجزيرة من شهور مرت ..

تأرجح القارب بلا توقف ومعه تأرجحت أحاسيسي الشبِقة..

وكما يتلقف الموج قاربي الخشبي الصغير ها هي دنيا جديدة تتلقفني وتلقي بي إلى المجهول بصحبة العجوز الذي لا يخفض نظرهُ عن السماء ..

كانت كلماته تتردد في عقلي بلا توقف.. قاذفة في قلبي مزيجٌ من الانتظارِ والترقب ..

فها أنا وذاك المخبولُ الأسطوري في قلب البحر في قاربٍ خَرِب بلا طعام أو شراب.. وهو صامتٌ شاخصٌ ببصرهِ إلى السماء وكأنه ينتظر مددًا من هناك ..

كنتُ مُستمتعًا بإحساسي إنه بلا شك يقرأُ أفكاري المتناثرة حوله كرذاذ الماء العاصف من حولنا وأنا أعرف كما يعرفُ هو أني سأكونُ أشرّ شيء له ..

عبرَ الظلمةِ الدامسة كانت عيناه مضيئتين بضوءٍ دافئ ورغمَ ضربِ الموج للقاربِ مئات المرات كان مازال في سفره السماوي في أرض السرمد المبهرة ..

كان عقلي يشتاق للحظةٍ أخرى في هذا الوهم الرائع وأنا اسمعه يتحدث بلا صوت ويطوفُ بي في زمن آخر وأنا مازلت في نفس المكان ..

اشتدت العاصفة وعلا صفير الريح والمركب كريشةٍ في مهب الريح يدورُ ويعلو وينخفضُ بلا إرادة ونحنُ على متنه صامتان مُترقّبان..

كان غروري أقوى من أن أسأل العجوز إلى أين نمضي.. وكان ثباته وصمته يتحديان فضولي في صمتٍ ضروس ..

يعلو صوتُ الريح أكثر.. وتتداخل الأصوات فيما بينها.. والمركب يتأرجحُ في عنف ..

ملأ الغثيان صدري.. والبرقُ يضرب من جديد.. والرعد يدوي ..

دوامةٌ تقترب.. برق.. رعد... ماذا يحدث؟

تمسكتُ بجانبي المركب في إصرار.. ريح عاتية.. برق.. رعد..

لمعت عينا العجوز في شدة.. وبدأ يرتفع عن المركبِ في بطء وهو مازال في جلسته..

أخذت الدوامة تقترب من المركب في بطء.. كنت أراها ولا أملك أن أمنعها من الاقتراب.. بل على العكس شعرتُ أني أريدها أن تقترب أكثر..

الريحُ تعصف..

صوت عالٍ ينادي من بعيد " يا ساميّ.. "

شعرُ العجوزِ يتطاير في عشوائية ويضفي على شكله مسحة مرعبة.. الصوت يعلو هادرًا عاصفًا بكياني ...

" يا ساميّ"

أدورُ برأسي في كل اتجاه وعقلي مشوَّش تتآكلهُ الحيرة.. أهتف "من أنت "

يعودُ الصوتُ من جديد " أنا منك.. وأنت.. مني "

" من أنت؟" ....

تتشكلُ الغيومُ السوداءُ وجهًا بشعًا يملأ مدى النظر.. أنا أعرف هذا الوجه..

" أنت لي يا سامري "

تتجه الدوامةَ نحو المركب.. برق.. رعد.. المركبُ يدورُ في سرعة

والعجوزُ يواصلُ ارتفاعه.. أسمع صوت العجوز أقوى من العاصفة

"لا.. لن تأخذه..."

الرعب يبلعني، أشعر بغُصة ويضيقُ صدري.. أشعر أني أريدُ أن ألقي بنفسي في قلب الدوامة..

" هو لي.. يا سامريّ أنت لي.."

يحول جسدُ العجوزُ بيني وبين الوجه المرعب المرسوم بين الغيوم وهو يرفع عصاه أمام الوجه متحديًّا في قوة

" ليس بعد يا لعين.. ليس بعد.. هو لي الآن .."

" يا سامري.. تعال إليَّ.. أنا منك وأنت منّي "

" لا.. لن تأخذه "

أشعرُ أني أتمزق فيما بين الصوتين الهادرين..



يهتف بي العجوز في صوتٍ عميق

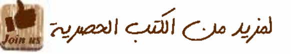
" يا سامري لا تسمع إلا صوتي "

يتغمدني صوته برحمته فيحيطني من كل اتجاه

"أغلِق عينيك يا سامري.. افعل "

أطيعُ العجوزَ خائفًا.. والأصواتُ تتداخلُ من حولي أبلعها وتبلعني..

الدوامة تلعب بالمركب.. أدور.. أدور.. أدور..



يضيعُ كل شيء.. أطفو.. أطير..

إنه السرمد الناعم ثانية..

أشعرُ بالراحة..

تخفُت كل الأصوات ..

ينتهي كل شيء..

* * *

- 19 -

" بإرادتي تذهب لا بإرداة اللعين ..

تمشي وتجول.. لكن لا تسكُن بعد ..

ترى وتسمع.. لكن لا تؤمن بعد ..

لكن تذهب وتعود "

كذلك قال العجوز السابحُ فوق بحرِ الضوءِ في السرمد الناعم المُحبَّب وهو يبتعد في تؤدة تاركًا إياي نهبًا للأفكارِ وللخوف ..

فكلماته التي تحيرني هي ما أشتاقُ الآن وأنا أراقبه يبتعد على مهلٍ سابحًا على موجة الضوء في اتجاه اللامكان وكأنه من العدم يأتي وإلى العدمِ يروح..

ومع كل خطوةٍ يقطعها مبتعدًا يتبدلُ الضوءُ ظلامًا والأمنُ خوفًا والراحةُ مشقةً وعذاب ..

على الماءِ أمشي مُندهشًا بينَ الظلال، من حولي الأمطارُ والعاصفة والزوابع

لا أدري أين أنا أو لأينَ أسير.. ولكني أفعل

"اذهب لتتعلم.. ولتختار.. فتسقط وسط الاختيار في المكتوب "

أنا فيما يشبهُ الحُلم ولكنه ليس حلمًا.. يكادُ أن يكون واقعًا ولكنه ليس كذلك.. فأنا في منطقةٍ وسطى ما بين الواقعِ والحلم.. تمامًا كما كنتُ أشعر في الجزيرة ..

ضباب من حولي يحاوطني ليبدو كل شيء حولي غارقًا في الصمت وفي الجمود

أتحرك في خطٍ مستقيم نحو مستقبلٍ لا أدري عنه شيئًا ومن بعيد أمامي يدوي صوت مألوف:

" اقترب يا رفيقي الأبدي.. أنا في انتظارك "

ومن خلفي يدوي صوتُ العجوز :

"اذهب يا سامري بأمري.. وعُد بأمري.. لا خوف عليك حتى يشاء الله "

وأنا فيما بين الصوتين لا أملك إلا أن أندفع رغم خوفي نحو الضباب بلا توقُّف.. يبتلعني الضباب نهائيًّا ويصمت صوتُ العجوزُ من خلفي ولا يبقى إلا صوتٌ واحد :

" اقترب يا سامريّ.. اقترب "

صفيرُ الريحِ يعلو من حولي والأمطار تهطلُ ثقيلة على أكتافي التي ما عادت تحتمل أحمال القدرِ ومغبة اختياراتي وغدي الذي لا يرحم..

" تمضي في بحرٍ ورياح.. وغدٍ لا يرحم الله فيه المطرودين من رحمته .."

اخترق صوتُ الجسَّاسة أذني وشعرتُ بحنيني إليها مُعذبتي وهي تلقي إلى بنبوءاتها اللعينة التي تتحقق واحدة تلو الأخرى..

اختلط الصفيرُ بالرعدِ بأصواتٍ مخيفة من صراخٍ وعويلٍ وآلامٍ وحسرة لا تنتهي..

وتَفتَّح الضبابُ لي كاشفًا عن واقعٍ أسود مخيف..

ها هو ما أخطو نحوه أمامي واضحًا..

أرضٌ تفترشها الحياتُ تتداخل أجسادها فيما بينها، تتحركُ بلا توقف، ترمي فحيحها وتتقافزُ نحوي في عدائية نافخةً رقابها..

أرضٌ لعينة في قلب البحر.. بل هي أرضُ اللعنةِ ذاتها، السماءُ فوقها سوداءٌ غيمية.. تضربُها البروق والرعود بلا توقف بينما تحيطُ الحمم البركانية بها من كل الجوانب..

على الجانبين اصطفت مخلوقات لا صفة لها إلا القبح والشذوذ البعض يغطيه الشعر والبعض أصلع تمامًا.. البعضُ عمالقة بالغو الطول والبعضُ أقزام مشوهون ..

مختلفون في الأطوالِ والأحجامِ والأشكال والجميعُ يحدقُ فيَّ في تطفل..

وعلى الوجوه ابتسامات مقيتة ذات لهفة وتّشّفٍّ ..

يشيرون إليَّ في محبة وأنا أخطو فوقَ الماءِ الثابت بينَ آلاف الثعابين الفحاحة..

وعلى مدى النظر عرشٌ عظيم من نارٍ وغضب فوق الماءِ يطفو أو يطير ..

"اقترب يا رفيقي.. اقترب "

الصوتُ يحملني من بعيد فأطفو بلا إرادة وأندفع نحو الكائن الجالس فوق العرش في غرورٍ لأمثُل أمامه تمامًا وسط الأصوات الفَرِحة المتداخلة

البشعة التي تصمُ الآذان.. مع اقترابي رأيتُ ملامحه المقيتة.. القبيحة تمامًا كما في أحلامي، ولكنه أكثر ضخامة.. هو بقرونه وعينيه الحمراوين وقرنيه الصغيرين وذيلٍ طويلٍ يتحرك خلف ظهره مع كل كلمة.. يضعُ حرملةً ناريةً طويلة مسدلة خلفه.. كل ما به يرعبني.. ولكني تماسكت..

" أنا أعرفك "

قلتُ في صوتٍ مبحوح وَجِل ..

فردَّ بابتسامة صفراء -لا يمكنك أن تصدقها ولكنك حتمًا ستقبلها –

" بالطبع تعرفني يا سامريّ.. فعلى يدي وُلِدت.. ومع همسي كبرت..

ويداي هاتان كانتا ما حملك لتضعاك عند أقدام تمثال البقرة في السامرة، وأنا رفيقك وصديقك الأبدي.. أنا قدرُك وأنت قدري ..

وأنا كنتُ البداية.. وأنت ستكونُ النهاية ..

أهلًا بك في "كِهنوم" أهلًا بك في البر- مود البعيد"

* * *

- 20 -

" وإذ قال ربُكَ للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفة.. قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفِكُ الدماء.. ونحنُ نُسبّحُ بحمدِكَ ونُقدسُ لك؟ .. قال إني أعلم ما لا تعلمون "

....

"أسماء عِدة عُرِفتُ بها على مرِ الزمان؛ فالبعض أسموني "إبليس".. وهذا لأني أبلستُ أي يئستُ من رحمةِ ربي.. والبعضُ أسماني متهكمًا بالعبرانية: "بعلزبوب" أي ربُ الذباب؛ لأني في أول عهدي لم يتبعني إلا المخلوقات الدنيئة ثم زاد تهكمهم عليَّ ليسموني "بعلزبول" أي ربُ الزبالة!!! - يالهم من متحذلقين - كما أنهم أسموني "سيتان ".. والذي تطور بفعل الزمن إلى "شيطان "..

ولقد أسماني البعضُ أيضًا "لوسيفير" أي إله الضوء- وسيكون لنا أنا وأنت معًا حكاية مع هذا الاسم - ولكن دعني لا أطيل عليك؛ فالعجوز النكِد أخذ عليَّ عهدًا وميقات لا أستطيع أن أخلفه؛ لذا دعني أخبرك بسرعة أني رغم أسمائي الكثيرة كان أحبّ أسمائي إليَّ هو اسمي الذي وُلِدتُ به واشتهرتُ به في أول عهدي وهو "عزازيل"

استوى عزازيلُ على عرشهِ وألقى برأسهِ للخلف بادئًا في الحكي وبدا وكأنهُ يسافرُ بخيالهِ لأرضٍ بعيدة.. بينما أنا جالسٌ إلى يمين عرشهِ أستمع في إنصات ..

"بدأت قصتي منذُ ما يقرُبُ من ألفي عام قبل خلق الإنسان على الأرض.. عندما خلقَ اللهُ "سوميا" أبا الجن.. وقد خلقهُ اللهُ من مارجٍ من نار.. والمارجُ هو الألسنة الملتهبة التي تخرجُ من النار عندما يُجَنّ جنونها.. إن كنتَ لا تعلم أن للنارِ جنونًا..

خلقَ الله سوميا وسألهُ أن يتمنى عليه فقال سوميا:

"أريدُ أن نرى.. ولا نُري.. وأن نغيبَ في الثَرى.. وأن يصبحَ كهلُنا شابًا "

فكان لهُ ما تمنى..

وأسكنهُ اللهُ الأرضَ يتبوأ منها حيثُ يشاء ..

فأصلحَ وبنا وعَمَّر ..

وعَبدَ اللهُ على جميعِ أحوالهِ وأنجب الكثيرَ والكثيرَ من الجنِ المؤمنين بالله الواحد الواحِد.. الشاكرين لنعمهِ ولفضلهِ ..

ومرت السنون ..

عشراتِ السنين ..

مئات السنين ..

والجنُ في نعمةِ الإيمانِ والتقرب لله ..

ومرت السنون ومرت ..

حتى أتى على الأرضِ حينٌ لم يكن عليها إلا مؤمنٌ واحد.. نعم..

فقد بدّلَ الجنُ اعتقاداتهم وبغوا وتقاتلوا وسفكوا الدماء وأفسدوا وكفروا بالله ولم يتركوا معصيةً واحدةً لم يرتكبوها..

عندها..

أمرَ اللهُ جيشهُ مِنَ الملائكةِ بقيادةِ جبار الملائكةِ والروحُ القُدس "جبريل" بأن يهبطوا على الأرض ليقاتلوا الجن المفسدين ويقضوا عليهم ويهزمونهم ليروا أن أمر اللهِ حق وقد فعلوا..

فدارت حربٌ ضروسٌ على الأرضِ بين جيشِ النورِ وجيشِ الظلام، انتهت بهزيمةِ جيشِ الظلام هزيمةً نكراء ..

وطاردَ الملائكةُ الجنَ فحاصروا منهم من حاصروا وقتلوا منهم من قتلوا ..

أما من فرَّ منهم فقد اختبأ مدحورًا في أطرافِ الأرض وفي المستنقعات والأراضي المُنخفضة القذرة التي تأنفُ الملائكة أن يدخلوها ...

وهكذا انتهت الحرب..

أما عن المؤمنِ الوحيدِ على الأرض؛ فقد كان جني طفل حارَ فيهِ الملَائكة ماذا يفعلون؟

فأخذوه إلى قائدهم جبريل قائلين..

"يا جبريل.. لقد دحرنا الكافرين بالله وطاردناهم وحاصرناهم وأسرنا منهم مَن أسرنا.. وطهّرنا أرضَ اللهِ من الجنِ حتى صارت طهورًا.. إلا مِن هذا ..جني طفلٌ واحد لا يكادُ ينطق.. فإذا نطق.. قالَ اسمُ الله.. فماذا نحنُ بهِ فاعلون؟ "

فكرَ جبريلُ لثانية ثمَ قال

" وإلى اللهِ تُرجعُ الأمور "

وهكذا رجعَ الجيش المنتصر إلى السماء ومعهم هذا الطفل المؤمن وأخذهُ جبريل إلى ربهِ ونقلَ لهُ حديثُ الملائكةِ واللهُ بحديثهم أعلَم.. فأمرَ اللهُ الملائكةَ أن يُربي هذا الجني الطفلُ بينهم كواحدٍ منهم وأمتثلَ الملائكة وكيفَ لهم أن لا يمتثلوا ..

وعندما أعادَ جبريلُ الأمين الجني الطفل إلى من وجدهُ من الملائكة، سألهم:

" أيعلمُ أيكُم اسمه؟ "

فردَّ أحدهم :

" نعم.. أنا أعلم.. اسمهُ عزازيل "

نعم يا صديقي ..

قد كانَ هذا الطفل... أنا .

سكتَ عزازيل وتفحصَ في وجهي ليرى الدهشةَ مرتسمةً عليه في أقوى صورها

وكأنها نُحِتَت على وجهي نحتًا فابتسم وقال مداعبًا:

"لعلك ترى مدى التشابه بيني وبينك يا رفيقي.. وكأنني وأنت قد وُجدنا في هذه الدنيا لنتلاقى ونتشارك فيما هو آتٍ.. نعم.. أن هذا هو قدرنا ..هذا هو المكتوب "

قفزت كلمة "مكتوب " في عقلي صارخة وتذكرتُ العجوز وكيف إنه قال أن لكلِّ مكتوبٍ اختيار.. وهممتُ أن أسأل عزازيل عن سر اختياره الذي ألقى

به إلى المكتوب.. وإذا بهِ يضحك مجلجلًا وكأنهُ قرأ ما في عقلي يدور.. ثمَ قال في بطء:

"سأخبرُك يا صديقي الأعور سأخبرك.. ولكن دعنا لا نُفسد تشويق القصة بالقفزِ إلى النهايات مباشرةً.. دعني أقصُ عليكَ الأمر كما حدث "

تمالكتُ نفسي بمشقةٍ بالغة وبدأ هو من جديد..

" وهكذا سكنتُ السماء.. وتربيت بين الملائكة.. وهم شملوني برعايتهم حتى أخذت عنهم الطاعات والعبادات وصرتُ أمارسها كواحدٍ منهم بجديةٍ شديدة وبإصرار.. كان في داخلي جزءٌ يحدثني دائمًا أني لستُ واحدًا منهم؛ فأنا من الجن من النار وهم من النور والضوء.. وهم لا خيار لهم في العبادة فعلى هذا فطروا ولهذا خُلِقوا، أما أنا فقد كنتُ مخيَّرًا.. ولسببٍ ما شعرتُ دومًا أني أقل منهم درجة وكان هذا دافعي في أن أُجِد وأُصرّ على أن أفوقَ الجميع.. في كل شيء في الصلاة، في التسبيح، في العبادة.. حتى في الطاعةِ العمياء لله الواحد..

وهكذا صارت حياتي كما اخترتها أن تكون: طاعة دائمة وصلاة لا تنقطع..

ومرت السنون بلا توقُّف، ومع كل وقتٍ يمُر كنت أزيد مما أنا فيه.. كنتُ لا أقنَعُ أبدًا أني بلغت نهايتي في الطاعة، وكان طموحي أن أصبح فوقَ الجميع.. نعم هكذا كنتُ أفكرُ في حينها..

ومع كل وقتٍ يمر كان اللهُ يرفعُني بعملي درجة.. ويقرّبني في المنزلة ويزيدني من نِعمه.. ولم أقنع فأتوقف أنا ولم يبخل عن الزيادة هو ..

حتى أصبحت رئيسَ الملائكةِ في السماءِ الدنيا وصرتُ أحد خزنةِ الجنة وهي منزلة كبيرة للغاية بين الملائكة.. فما بالك بي وأني من جنسِ الجن الأبِق الذي أفسدَ في الأرض ..

شعرتُ حينها بالزهو.. حتى إني كنتُ أتفاخرُ على أقراني من الملائكة بأني وأنا من الجن فُقتُ بعضهم منزلةً وعلوًّا فكان ردهم ..

" ذلكَ فضلُ الله يؤتيهِ من يشاء واللهُ ذو الفضلِ العظيم "

كم أغاظوني بتواضعهم.. ألا توجد أي روحٍ للتنافس فيهم.. كنتُ أتعالى عليهم فيرودُني بلطف

"إن اللهَ لا يحبُ كلَ مختالٍ فخور "

وهكذا مرت حياتي بلا جديد وأنا دائم العبادة مزاولًا لأعمالي المكلَّفة إليَّ بلا كلل.. حتى كان يوم.. "

صمتَ عزازيل وكان صمتَه قاتلًا.. هممتُ أن أحثُه على الكلام إلا أن نظرةً ناريةً مخيفة قاطعت تفكيري.. كان يجتر ذكرياته وكأنهُ يقطعُ من جسده وكان واضحَ الحسرةِ وربما الندم.. لا أدري.. ولكني أثرتُ السكوت..

مرَّ الوقتُ قاطعًا كالسيف ..

وعزازيلُ يجولُ بعينيهِ في المكانِ كأنهُ يراهُ لأولِ مرة ثم قال:

" أتعلم أني لم أحكِ هذا من قبل؟ .. وقد أورثني حكيي غِصةً ومرارة كأني بنفسِ اليومِ ذاته الذي بدأ فيهِ كلُ شيء.. كأني.. أعيشهُ الآن.. أحياهُ.. "

شعرتُ منهُ بالخوف خاصةً أن كلمتهُ الأخيرة ألقاها وكأنه يقذفُني بنار الجحيمِ ذاتها ..

مرت لحظات لعينة صمتَ فيها كلُ شيء حولنا وكأن ما حولنا من المخلوقات المشوهة قد تجمدوا احترامًا لأحزانِ قائدهم..

أما عنّي فكنتُ حريصًا على ألا أظهرُ فضولي ..

لم يمرُ وقتٌ طويلٌ حتى تنهد عزازيل وبدأ يُكملُ في بُطءٍ، وهذه المرة لم يكُن ينظر إليَّ إطلاقًا..

شعرتُ بالإهانة ..

ولكنه كانَ يحكي وأنا كنتُ أتعلم ..

وكان هذا يكفيني ..

"حدثَ أن جمع اللهُ ملائكتهُ المقربين.. ولم أكن منهم.. فالمقربين من الله هم رؤساء الملائكة أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش وآخرون وهم في مكانةٍ لا تُطال.. وأخبرهُم الله أنه عازمٌ على خلق بشرٍ يتناسلون على الأرض.. لم يكُن لفظُ "بشر" من الألفاظِ المألوفة في السماء فلم يكن الله قد خلق بشرًا من قبل..

وهكذا تساءل من تساءل عن معنى بشر فقيل إنه خَلقٌ مِن طينٍ لازب ..

والطينُ اللازب هو الطينُ الطازج المتماسك القابل للتشكيل..

لم يكُن من المعتاد أن يخبرَ اللهُ ملائكته عن عزمٍ اعتزمَه؛ فهو سبحانهُ بالغَ القدرة ولا يُسأل عمّا يفعل وهُم يُسألون ..

ولذا كانَ الأمر برُمّتهِ غريبًا، ولكنهُ مكرُ الله واللهُ خيرُ الماكرين ..

وهكذا تعاملَ الملائكةُ معَ الأمر بوحيٍ من الله فرمى اللهُ في قلوبهم سؤالًا..

حيثُ قالوا:

"أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدماء ونحنُ نسبّحُ بحمدِكَ ونقدّسُ لك "

وقد كان الملائكةُ قد رأوا من قبل ما فعلهُ الجنُ على الأرض وقد راعهم أن يخلقَ اللهُ جنسًا آخر ليُشيعَ الفوضى ويكفرُ باللهِ الواحد.. وكانَ ردُّ اللهِ عليهم قاطعًا حاسمًا؛ إذ قال لهم :

" إني أعلم ما لا تعلمون " ..

وهكذا سادَ الصمت بينَ الملائكة.. وشرعوا في الاستغفار موضحينَ للهِ -ما هو بهِ أعلم - مِن أنهم لم يقصدوا معارضة المشيئة العُليا لذي الجلال.. بل كانوا يستوضحون..

وقبل أن تسألني كيف علمتُ كلَ هذا وأنا لم أكن ممن حضرَ المشهد؛ فها أنا أخبرُك أن الأخبار كانت تتناقل في السماء بسرعة ويتحدث بها الملائكة بعضهم لبعض..

وإلا كيفَ يتسمّعُ الجنُ خبرَ السماء وما هُم ببالغيها.. دعني لا أُطيلُ عليك..

كانَ وقعُ الخبرِ عليَّ ثقيلًا.. فأنا لم أكن مضطرًا أن أقبلَ كالملائكة.. بل كانَ لدي عقلُ أعقلُ بهِ وخاطرٌ يُحدثُني.. ومخاوف تحيطُ بي..

باختصار: كنتُ كيانًا مُختلفًا..

وهكذا وجدتني لأولِ مرةٍ مُنذُ قرون مشغولًا عن العبادة بأمرِ هذا الخلق الجديد..

والذي استشعرتُ خطرًا بالغًا من وجوده المُنتظَر "

***

- 21 -

" وقالَ اللهُ لرئيس ملائكتهِ جبريل :

اهبط إلى الأرض فائتني منها بقبضةٍ من تراب ..

فهبطَ جبريل إلى الأرض وهَمَّ بأخذ قبضةً مِن تراب فنهته الأرضُ فقالت: أعوذُ باللهِ من أن تُنقص مني شيئًا..

فصعَدَ جبريل إلى ربه وقال:

يا رب إنها استعاذت بك من أن أُنقِص منها شيئًا.. فأعذتُها..

فأرسل اللهُ ميكائيل إلى الأرض.. فقالت له الأرض:

إني أعوذُ باللهِ مِن أن تُنقِص مني شيئًا ..

فرجعَ ميكائيلُ إلى ربهِ وقال :

يا ربُ، إنها استعاذت بكَ من أن أنقص منها شيئًا.. فأعذتُها ..

فأرسلَ اللهُ ملكَ الموت فقالت له الأرض مثلما قالت لجبريل وميكائيل فردَّ عليها ملكُ الموت قائلًا :

يا أرض.. إني أعوذُ باللهِ منكِ أن تُرجعيني دون أن أنفّذ أمر اللهِ فيكِ ..

فسكنت الأرض.. وقالت :

إذن كانَ لِزامًا عليكَ أن تُرجع لي يومًا ما قد أخذت ..

فقالَ ملكُ الموت: نعم.. إذا أذِنَ الله

فأذِنَ اللهُ له ..

فقبضَ ملكُ الموت من كل طينٍ في كل بقعةٍ فيها قبضة.. فاختلط الأبيضُ بالأسود والأحمرُ بالأصفر فصارَ البشرُ ألوانًا وأشكالًا.. "

قلتُ في نفسي :

" تلكَ قصة جميلة "

....

تنهدَ عزازيلُ في مرارة وأكمل :

"وبدأ اللهُ في خلقِ آدم بيديه.. ولم يكُن اللهُ قد خلقَ شيئًا بيديه مِن قبل إلا العرش والقلم وجنةَ عدن.. ولم يخلق ذا روحٍ إلا آدم.. وخلق ما دونَ ذلكَ بكُنّ.. فكان ..

أغاظني هذا كثيرًا وزاد على حقدي حقدًا، وجعلني أوقن أن هذا الخلق الجديد إنما أتى ليسلبني كل مجدٍ اكتسبتُهُ طوال ما مرَّ عليَّ مِن القرون.. فزاد كرهي له حتى قبل أن يوجَد ..

ولكن ماذا يمكنني أن أفعل وقد شاءَ اللهُ وليسَ لمشيئتهِ مَرَد ..

وشكَّلَ اللهُ آدم، وظل آدم أربعينَ ليلةً جسدًا مُلقى بلا روح.. فكنتُ أتسللُ إليه في كل ليلة فأضربهُ بقدمي في حقدٍ فيصلصل فأعلمُ أن داخلهُ خواء..

فأدخل في جوفهِ وأمر بداخلهِ الفارغ حتى أخرج مِن دبرِه فأقولُ لنفسي :

ما خلقَ اللهُ هذا ليُصلصَل.. بل إن للهِ حكمةً فيه.. واللهِ لئِن سُلِّطتَ عليهِ لأهلكنَّه.. ولئن سُلِطَ عليَّ لأعصينَّه.. وظلَ الحالُ على هذا طوال الأربعينَ ليلة.. وفي كلِ ليلةٍ أركلُه وأدخلُ في جوفِه حتى كان يوم جمعنا اللهُ فيه جميعًا في الجنةِ وقال :

"إني خالق بشرًا مِنَ طينٍ.. فإذا سويتهُ ونفختُ فيهِ مِن روحي فقَعوا لهُ ساجدين "

وَقعَ عليَّ الأمر كوقعِ الصاعقة.. أحقًا أمر اللهُ ملائكتهُ أن يسجدوا لهذا التكوين الطيني الخاوي المُصلصل أم أن سمعي قد خانني.. أحقًا علينا أن نسجد لهذا الوضيع ولم يكُن اللهُ قد أمرنا بالسجود قبلها قَط إلا لجلاله ..

أي مكانةٍ سيتبوأها هذا الموعودُ بغضبي وحقدي وقد خلقهُ اللهُ بيديه وأسجَد لهُ الملائكة !!!!

كانَ قلبي يقطُرُ دمًا.. وقد أحالَ الحقدُ وخيبةُ الأمل الدنيا حولي سوادًا حتى صرتُ أشعر أني قادرٌ على إتيانِ أي شيء لكي لا أسجد لهذا اللاشيء حتى لو خالفتُ أمرًا إلهيًا مباشرًا ..

"يا إلهي ليتكَ لا تفعل.. ليتكَ لا تفعل "..

ونفخَ اللهُ في آدم من روحهِ أمام عيني الذاهلتين..

إذا بالجسد الطيني يتحولُ بشرًا كاملًا من لحمٍ وعظامٍ وعروقٍ نابضة بالحياة

أخذتُ أشاهدُ الروحَ وهي تجري في جسدهِ محولةً إياه إلى كائنٍ حي حتى وصلت إلى صدرهِ فعطس آدم فقالت الملائكة :

"قل الحمدُ لله "

فقال البغيضُ:

" الحمدُ لله "

فقال ربُ العزة :

"يرحمُكَ اللهُ يا آدم"....

واكتملَ خلقُ آدم فوقف.. فَخَرَّ الملائكةُ ساجدين.. جميعُ الملائكةِ حاضري المشهد العظيم.. إلا.. أنا..

وهكذا بينما انخفضت الرؤوسُ جميعًا أمام معجزةِ الخالق الجديدة وامتثالًا لأمره بقيت رأسان لم ينخفضا..

آدم.. وأنا ..

سادَ الصمتُ كئيبًا وأنا أبادلُ آدم نظرات حقدٍ حارقة.. وهو يرميني بنظرةٍ خاوية.. بلا أي تعبير.. حتى قطعَ صوتُ اللهِ الغَاضب ما بيننا إذ قال :

"يا إبليس.. ما منعكَ أن تسجد لما خلقتُ بيدي.. استكبرتَ.. أم كنتَ مِنَ العالين "

كِدتُ أصرخُ غاضبًا وقد أعماني الكِبرِ عن عظمةِ وقوفي أمام الخالق العظيم.. إلا أن صوتي خرجَ ضعيفًا مُتكسرًا..

قلتُ: أنا خيرٌ منه.. خلقتَني مِن نار.. وخلقتَهُ مِن طين ..

قُلتُها وأنا أشعر بكلِ حرفٍ فيها.. فلم أقُل إني العابدُ الورِع.. ولم أقُل إني من آمن باللهِ بينما كفرَ الجنُ أجمعين.. فقط قُلتُ أنا خيرٌ منه.. وعُذري أني خُلقتُ من نار ..!!! "

ضحكات هادرة أطلقها عزازيل ساخرًا.. ليصمت فجأة عن ضحكه ويُحدِق في وجهي بوجهه البشع ويكمل ..

"وهكذا بكل حمقٍ وجهل أعلنت أمام الله الواحد أني أرفضُ ما خلقةُ بيديه متحديًا أمره لي بالسجود لأني أرى أني أفضلُ منه في عنصرِ التكوين..

وهنا قالَ اللهُ بعد أن رأى أني أتحدى مشيئتهُ العليا :

" قال.. فاهبط منها.. فما يكونُ لكَ أن تتكبرَ فيها ..فاخرج إنكَ من الصاغرين"

أأخرج منها أنا؟؟ أنا.. أم هذا الذي خلقتهُ من طينٍ من حمأٍ مسنون ..

زادَ غضبُ اللهِ على فقال:

" فاخرج منها فإنكَ رجيم.. وعليكَ لعنتي إلى يومِ الدين "

وحُسِمَ الأمر..

وبخطواتٍ مُتحسرة.. وبقلبٍ مذبوحٍ كسير.. جرجرتُ نفسي ماشيًا وقد طأطأتُ رأسي خجلًا وقد خسرتُ كل شيء.. كل ما كنتُ أسعى من أجله، كل ما اجتهدتُ وتعبَّدتُ من أجله.. ولأجل من؟

لأجل هذا التافهُ الطيني البغيض ...

كان يُمكنني أن أتراجع..

أن أسجد وأستغفر وأتوبُ إلى الله.. وكنتُ أعرفُ أن الله سيقبل توبتي فهو قابل التوب.. غافرُ الذنب.. إلا أنني لم أفعل.. منعني غروري أن أفعل ..

وكنت أفضِّلُ لو أني أُلعَن ألفَ مرةٍ على أن أفعل..

فامتلأتُ حقدًا.. وكُرهًا لمن كان سبب ما أنا فيه من نقمة.. وبغضتُ من كان السبب في طردي.. وشعرتُ في داخلي رغبةً شديدةً في إيذائه.. وهنا قفزت الفكرة برُمّتها في رأسي.. فالتفتُ إلى اللهِ راجيًا فقلت :

" ربِ.. انظرني إلى يوم يُبعثون "

قالَ :

" فإنكَ منَ المُنظَرين.. إلى يومِ الوقتِ المعلوم "

فلمعت عيناي وأنا أقول بتشفٍّ:

فبعزتِكَ لأغوينهم أجمعين ..

نعم سأثبت صدق نظريتي وظني في هذا الجنس الدنيء.. وسأملأ منهم جهنم سأعلّمهم كل ما يُغضب الله وأملأهم حقدًا وغِلًّا وشِركًا وكفرًا.. فإذا كنتُ طُردتُ من الجنة وأنا خيرٌ من آدم فسأطردُ آدم من الجنةِ صاغرًا ..

ولن أسمحَ لأبنائه أن يدخلوها ما بَقيَت الدنيا ..

فقال الله مُحذِّرًا:

"إن عبادي ليس لكَ عليهُم سلطان.. إلا من اتبعكَ مِن الغاوين "

فقلتُ مُتحديًا :

" لَأزينن لهم الأرضَ ولأغوينَّهُم أجمعين.. إلا عبادكَ مِنهُم المُخلَصين "

فقال الله:

" فالحقُ والحقُ أقول.. لأملأن جهنم منكَ وممن تبعكَ منهم أجمعين "

وهكذا.. كان اختياري الذي ألقى بي إلى المكتوب ..

اخترتُ أن أتحدى إرادة الله ..

فلُعِنت إلى الأبد ..

وكانت لعنتي أني مثلكَ يا سامريّ مُنظَرٌ إلى يومٍ معلوم..

إن لي مهمةً قد أقرني اللهُ عليها وأنت مثلي ..لكَ مهمة ..

أنا وأنت شيء واحد..

كِلانا ابن اختياره الذي ألقى بهِ إلى المكتوب..

ولكن لا تتعجل فإن حكايتي لم تنتهِ بعد فاسمع وأنصِت .... "

عصفتْ الريحُ حولي فاقشعر جلدي ولأول مرة أتذكر في غُمرةِ ما حدث أني مازلتُ فوقِ الماء، وفجأة خطر ببالي العجوز فخشيتُ أن يطلبني قبل أن ينهي عزازيل حكايته..

كان صمتُ عزازيل كما أرى هو صمتُ غضبٍ وحقد.. وكان صمتي صمتَ الجائع النهِم الذي ينتظر المعرفة في لهفة وشتانُ ما بين الصمتين.. أنا أعرفُ ماهية الغضب ولكني أعرفُ أن للغضبِ وللجنونِ وقتًا معلومًا

" ولهذا أنتظرك "

قال عزازيل في صرامة واستدرك بلهفة :

"معًا يا سامريّ سنغير العالم ..

غضبي وحقدي وجنوني مع عقلك وعلمك ورغبتك الطامحة في أن تملك كل شيء ..هو شيء واحد.. ألا ترى؟ ... نحنُ متكاملان معًا"

قلتُ مستكبرًا:

"ومن قال إني بحاجةٍ لأحد لأصلُ إلى ما أريد "

فاجأتني ضحكتهُ التي شقَّت سكون البحرِ من حولنا ..

" لهذا أحبك.. ألا ترى يا صديقي أنا وأنت وجهان لنفسِ العملة..

أعلم أنك لن تفهم الآن، ولكن فيما بعد ستأتي إليَّ بنفسك وأنت على استعدادٍ تام لكي نكون شريكين فيما هو أتٍ من مجد وعِزة وانتصار.. "

هممتُ أن أتكلم فقاطعني ليقول في صرامة:

"الوقتُ ضيق فدعني أفضي إليكَ بما عندي"

ابتلعتُ كلماتي راغمًا وقد أغرقَ فضولي مركبَ تمرُّدي فأكمل هو:

" وهكذا أصبحت مطرودًا مطاردًا بعد أن كنت أحد الرؤوساء.. وبعد فخري الذي حذتُه لم أنل إلا المقت والغضب والانطواء.. لم تتراءى لي حينها أني فعلتُ هذا بنفسي.. بل إن أحدهم فعل هذا بي.. لم أملك إلا الغضب الشديد والرغبة الغامرة في الانتقام.. ويجبُ أن يكون الانتقام عارمًا مدويًا يسمعُ كل من بالسموات السبع.. على مدى آلافَ السنين.. وإذا لم أفلحَ في أن أكون المؤمن الصالح فلأفعل إذن ما كان الجن يجيدونه: الشر.. الشر المُطلق..

حسمتُ أمري.. ولم أكن قد غادرتُ السماء بعد.. فأخذتُ أتلمس خُطى عدوّي وأحاول أن أعلم كل شيء عنه.. وكما أخبرتُك، كان الملائكةُ يتحدثون بأمورٍ كثيرة عن ما يحدث.. وأنا كنتُ أسمع.. وأعي وأُجهز الخطة..

علمتُ أن الله قد علَّم آدم الأسماء كلها.. أسماء كل مكنونات الجنة والأرض من أشجار وجبال وكل الأمور التي لا يعرفها الكثيرون.. وكذلك علمه أسماء الملائكة.. وأنه قد جمع الملائكة وقال لهم :

" أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين .."

وبالطبع لم يكن الملائكة على علمٍ بما يسأل الله عنه فقالوا :

"سبحانك لا عِلمَ لنا إلا ما علمتنا.. إنكَ أنت العليمُ الحكيم "

وهنا قال الله لآدم :

" يا آدم أنبئهم بأسمائهم.. "

وبالطبع أخذ آدم في تسمية كل شيء؛ لأن الله عَلمَهُ.. ولكنه لم يُعلِّم الملائكة؛ فكيف يعلمون ما لم يعلِّمهم إياه.. فلما انتهى آدم اندهش الملائكة لمدى علمه.. وفهموا أنه خُلِق لأمرٍ هام يعلمه الله فازدادوا ثقة في الله وإعجابًا بذلك المخلوق الطيني الذي قلب الأمور رأسًا على عقب في عالم السماء.. وعلمه الله بنفسه كما خلقه بيديه.. هنا قال الله لهم:

" ألم أقُل لكم إني أعلم غيبَ السمواتِ والأرض.. وأعلمُ ما تُبدونَ وما كُنتم تكتمون.. "

علمتُ كلَ هذا وأنا أتقلَّبُ على حسرتي وأنحَطُ وآدم يعلو ويعظم شأنهُ حتى إن اللهَ أسكنهُ الجنة وصارت وكأنها مُلكٌ لهُ يتبوأُ منها حيثُ يشاء..

ليصير هو مُنَعمًا وأنا مطرودًا من رحمةِ الله !!!

ولّمَا أحس بالوحدة ذلكَ المُترف خلق اللهُ لهُ رفيقةً من ضلعهِ وهو نائم لتكونَ زوجتهُ ولتكمُل سعادتهُ على حساب شقائي وتعاستي..

لم تكُن هناك أدنى فرصة لي لكي أُنغِص على آدم حياتهُ وهو محاطٌ بالملائكةِ المدججين الواقفين على أبواب الجنة لمنعي من الدخول..

كم هي غريبةٌ هذه الحياة.. انظر يا صاحبي كيف أصبحت بعدَ أن كنتُ أتعالى على الملائكةِ بطاعتي.. أصبحت ممنوعًا من قِبلِ الملائكة.. وأصبح معروفًا أنهم سيبطشون بي امتثالا لأمرِ الله إذا ما جرؤت واقتربت مِن أبواب الجنة !!

وبينما أنا في يأسي وقنوطي الشديدين علمتُ بأمرين جعلا من حياتي أقل تعاسة أولهما أن اللهَ قد منع آدم وحواء – وهذا اسم زوجته – منعهما من أن يأكلا من واحدة من شجر في الجنة وفيما عدا هذا هما في حرية أن يأكلا من كل شجر الجنة.. وهذا جيد فالآن لدي الهدف.. يكفيني أن أجعلهما يأكلان من تلك الشجرة كي أوقعهما في عصيان أمر الله.. تمامًا كما فعلت.. وبهذا يستحقان أن يُطردا من رحمةِ اللهِ كما سبقَ وطُردت..

هذا هو الهدف.. ولكن بقيت الوسيلة ..

وكان ذلك ثاني الأمرين اللذين أسعداني؛ وهو أني رأيتُ الحية تدخل إلى الجنة ولا يمنعها الملائكةُ الذين يحرسون الأبواب.. إذن هنالك فرصة في أن أدخل الجنة بمساعدة الحية.. ولكن بقي أن أُقنعها بمساعدتي..

وهكذا لم أُبطئ وانتظرتُ مَقدِمِ الحية على نار وأنا في أحلامي المتصارعة وفورة حماسي المُتقِد حتى رأيتُها أتية مِن بعيد.. فاستوقفتُها ..

لم يستغرق الأمر الكثير؛ فهي كانت تحب المداهنة وبها ميلٌ طبيعي لاستقطاب الحلفاء؛ فهي لم تكُن بتلك الأريحية لاكتساب أصدقاء كُثر.. وبالطبع أسعدها أن رئيس ملائكةٍ سابق مثلي يعرض عليها الصداقة نظير عمل تحالُفي صغير..



لقد سألتُ الحية أن تسمح لي أن أدخل في جوفها أثناء عبورها باب الجنة..

وقد وافقت بتفضلٍ بالغ وهكذا أصبحت لدي الوسيلة المُثلى لتحقيق هدفي الذي أنشده.

فقط بضع خطواتٍ بسيطة وأحصلُ على انتقامي".

***

- 22 -

" وقُلنا يا آدم اسكُن أنت وزوجُكَ الجنة.. وكُلا منها رَغَدًا حيثُ شِئتُما.. ولا تَقرُبا هذه الشجرة.. فَتكونا مِنَ الظالمين "

....

"لعلّ أكثر ما يُميزُ الجنسَ البشري في رأيي هو تجاهلهُ الدائم للحقيقة الواضحة وكأنه يكرهُ الوضوحَ بطبيعتهِ ..

فأنا مثلًا رغم تحديَّ الكبير لأمرِ اللهِ بالسجود.. ورغمَ طرده لي بعد المكانةِ العظيمة التي كنتُ قد وصلتُ لها إلا أني لا أنكر وجوده.. لأن هذه حقيقة مؤكَّدة مثل أني أتحدثُ إليكَ الآن بل إن حتى قصتي التي أحكيها لك الآن تُعدُ أكبرَ دليلٍ على وجود الله.. بل إن وجوده مؤكدٌ أيضًا بتلك الحالة من الصراع والذي نعيشهُ أنا وأنت.. فهذه حقيقة..

على عكسك يا سامريّ..

فأنت رغمَ أن قصتك بأكملها تدل على وجود الله إلا أنك تُنكرُ وجوده ..

برغم أن وجودك نفسهُ دليلٌ على وجوده..

وسيكون هذا عقبةً في طريقك إذا لم تعتنق فكرة وجود الله.. ففرقٌ كبير بين أن تدعو الناس لعبادتك وأنت تظُن أنك إله وأن تدعوهم وأنت موقن أنك لستَ إلهًا؛ ففي الحالة الثانية ستصبح أكثر ذكاءً وحكمة في التحايل لإثبات ألوهيتك المزعومة.. على عكس تأكُّدك أنك إله حيث سيجعلك باطشًا في حماقة، شديد التأثر بآراءِ الناسِ من حولك ..

أرى الكثير مِن الاستنكار على وجهك يا صديقي ..

لا عليك ..

فبرغم أني ضربتُ بك المثل في معارضة الحقيقة إلا أنكَ لستَ أنت المقصود..

إنما أنا أقصدُ آدم ..

فبرغم أن كل ما حدثَ لي كان أمام آدم، وبرغم أني أظهرتُ بكل الطرق رفضي التام لوجوده واحتقاري الشديد له وبرغم التعالي العُنصري الواضح في تقبُّلي لمخلوقٍ طيني تافه مثله.. إلا أنه لم يَشُك للحظة أني أخدعه..!!!!

أي حُمقٍ هذا؟؟

لقد دلفتُ إلى الجنةِ متسللًا عبر حمل الحيةُ لي في جوفِها متجاوزةً بي صفوفُ الملائكةُ الذين يحرسون أبوابَ الجنة.. وما إن دخلتُ إلى نقطةٍ آمِنة حتى خرجتُ من جسدِ الأفعى وشكرتها وأعلمتها أني لن أنسى صنيعها ما حييت، وأن أجعلُ منها راعية مُلكي ووسائد عرشي إلى أبدِ الأبدين ..

ورأيتُ آدم ...

وزوجتهُ الجميلة حواء ..

رأيتهما وراقبتهما من بعيد.. راقبتهما مطوّلًا غير عابئ بخطورة كل لحظةٍ تمرُ عليَّ وأنا ممنوعٌ من التواجد هنا.. وغير عابئ بما سيحلُ على إذا ما وجدني أحد الملائكةُ هنا..

كان الفضولُ يقتُلني كنتُ أريدُ أن أعرف ماذا يجعلهُ يفوقُني ولِم أسجَد اللهُ الملائكةَ لهُ.. ماذا فيه؟؟ ما هو سره؟؟

راقبتهُ والحسرةُ تأكلني والحزنُ يقبضُ على قلبي بيدٍ باطشة عاصرة عصرته حتى لم تترك به ذرةُ حبٍ واحدة..

كانت مراقبتهما عذابًا لي.. وكنتُ أحتاجُ هذا العذابُ كي أقدم على خطوتي الحاسمة ..

" يا آدم "

التفت آدم جافلًا مني مندهشًا لوجودي لثوانٍ معدودة.. انتزعتي نظراته القوية من ثقتي وألقت بها إلى الطرفِ الآخر من العالم فأيقنتُ لأولِ مرةٍ خطورته، ولكن نظرات حواء المتفرسة كانت كافية لأن أتابع.. لم تكُن رأتني من قبل.. وعلمت أنها صاحبة فضول وكان هذا مدخلي.. فلم أمهلهما ليتساءلا فبكيت، راعهما بكائي.. ورأيتُ العطفَ على وجه حواء وزاد نواحي فتقدما نحوي متسائلين فقالا:

" ماذا يبكيك؟ "

فقلتُ وأنا أعرف أني أقتربت من هدفي :

" يبكيني أنكما غير أهلِ السماء.. فهم خالدون.. أما انتما ففانيان ..و لن تلبثا أن تتركا كل ما أنتما فيه من نعمة "

رأيتُ في عينيهما الحزن وأنا أعلم أن بعد الحزنِ ضعف وبعدَ الضعفِ معصية

"ألا أدلكما على شجرةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يبلى؟ "

فهزا رأسيهما موافقَين.. فرفعتُ يدي في بطء وأشرتُ إلى الشجرةِ المُحرَّمة

راعهما ما فعلت.. وانصرفا عني.. ماذا؟؟ هل ستضيعُ فرصتي الوحيدة؟؟

لا.. لن أسمح بهذا ولو كان دونهُ الموت..

فأحطتُ بهما وواجهتهما وأعدتُ عليهما كلامي مرارًا وتكرارًا حتى قالا أنهما لا يصدقان ولن يصدّقا إلا إذا أقسمتُ لهما بالله..

كانا يعلمان أنه لم يقسم أحدٌ بالله كذبًا من قبل من أهلِ السماء..

وكانا واثقين أنه لن يقسمُ أحدٌ باللهِ كذبًا..

لم يكُن عقلهما مستعدًا بعد لِأن يستوعب فكرة أنه قد يخدعهما أحد من حيثُ لا يمكن أن يتصورا أنه فاعل ..

كانت براءتهما سبيلي للفوز ..

وسذاجتهما هي المقصلة التي سأقطع بها الحبلُ الذي يربطهما بالسماء ..

وبثقةٍ وبابتسامة، أقسمتُ لهما باللهِ أني صادقٌ وأني لهما من الناصحين ..

ولأنهما بشر..

ولأنهما لن يريا الحقيقة الواضحة حتى إذا كانت أمامهما ..

مدَّا يديهما أعلى أحد الأغصان واقتطعا ثمرتين..

وعيناي تزدادان التماعًا مع كل حركة يقومان بها..

وقرَّبا الثمرتين إلى فيهما وقضما منها..

بينما ابتسامتي الظافرة تتسع أكثر وأكثر ..

حتى بلعا ما اقتضماه ..

وهنا اختلفَ كل شيء ..

بدا الزمنُ وكأنهُ توقف بنا وآدم يسعُل بشدة وكذلك حواء..

أخذا يسعلا حتى إني جفلت.. وخشيت مما فعلت..

فكرتُ في الهرب..

وإذا بهما ينظرُ كل منهما للآخر وكأنهما يريان بعضهما لأولِ مرة ..

وأمام عينيَّ الذاهلتين رأيتهما يهربان كلٌ منهما من أمام الآخر في جنون ويجريان في أنحاء الجنةِ

وهما يخطفان من أوراق الأشجار أوراقًا كثيرة يحيطُ كل منهما به خاصرته وكأنهما لم يكونا يدركان من قبل أنهما عاريان!!!

وأيقن آدم وحواء ما فعلاه وعلما أني أقسمت لهما كذبًا.. ووجها إليَّ نظراتٍ غاضبة آسفة اختلطَ فيها الخوفُ بالغضب بالخزي والعار ..

وهنا.. دوى صوتُ اللهِ هادرًا ...

أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ .. وأقل لكما إن الشيطانَ لكما عَدوٌّ مبين "

فقالا :

" ربنا ظلمنا أنفسنا وأن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَ مِنَ الخاسرين "

لم يكُن بالأمرِ أكثر مما حدثَ فقال الله آمرًا وقد صدرَ حكمهُ النهائي :

"إهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌ ..و لكم في الارضِ مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين "

" فيها تحيونَ وفيها تموتون ومنها تُخرَجون "

وسادَ الصمتُ وآدم وحواءُ في خزي يبكيان ويستغفران.. وأنا في زهوي وغروري أقول في نفسي متوعدًا:

فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستَقِيمَ.. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُم شَاكِرِينَ.. فقالَ اللهُ مُحذرًا وواعدًا ووعده الحق:

اخْرُجِ مِنها مَذءُومًا مَدحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُم لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجمَعِينَ"

وهبطنا إلى الأرض.. أنا.. وآدم وحواء.. وأيضًا الحية ..

طُرِدنا بلا عودة ..

أما عن آدم وحواء فظلا في بكائهما كثيرًا واستغفرا زمنًا حتى تابَ عليهما ربهما.. ووعدهما بأنهما إذا أصلحا هما وبنوهما فسيكون موعدهم الجنة..

وإذا لم يُصلحا هما أو بنيهما فما عقابُ المفسدين في الأرض إلا جهنم ماكثينَ فيها أبدًا...

أما عني: فلم أتُب ولم أتراجع وقد جعلتُ من آدم وسلالته أعداءً أبدين لي ما حييتُ من الزمن وما بقيتُ في هذه الأرض ..

وهكذا بدأت معركتي مع آدم وأبنائه هُزِمتُ في بعضِ الجولات وانتصرتُ في بعضها ..

ولكن كانَ من أعظم انتصاراتي على آدم حينَ سولتُ لأحد أبنائه قتل أخيه طمعًا في أن يتزوج من أخته التوأم وقد كانت حواء تلدُ في البطنِ الواحدة

ولدًا وبنتًا، وكان الله قد حَرَّم على أبناء آدم أن يتزوجوا ممن ولِدنَ معهم في بطن واحدة فزينتُ لقابيل أختهُ وجعلتُ أحدّثه عن مدى طمع أخيه هابيل في نيتهِ الزواج من أكثر الأختين جمالًا تاركًا لهُ الأخت القبيحة. وقلتُ لهُ أن أباه آدم قد صارَ شيخًا مخرفًا إذ أنه يُفضِّل عليه هابيل في كل شيء، كما أنه يقول إن الله يحبُ هابيل أكثر ..

وأخذتُ في تغذيته بحقدي وكُرهي لأخيه حتى صدقني واعتنقَ سُبلي فَفرَّط في حقِ الله حتى إنه قرَّب للهِ قُربانًا رفضهُ الله إذ وسوست لهُ أن يعطيهِ أسوأ ما أخرجت أرضه وقد أفهمتهُ أن خير أرضه له لا لإلهٍ لم يَرَه ..

ولما قَبِلَ اللهُ قربانَ أخيهِ هابيل وكان قد قدمَّ للهِ خيرَ غنمه عَلِمَ قابيل كم يضطهدهُ الله.. وكم يُفضِّل أخاهُ عليه.. فزاد سخطه وكُرهه لأخيه فَلَم يلبث أن قتله ..

وكَم سعِدتُ بحزن آدم على ولدهِ الأقوى والأفضل والأكثر إيمانًا وهو يقول حزينًا وجِلًا:



"هذا مِن عملِ الشيطان.. إنه عدوٌ مُضِلٌ مُبين "

نعم يا آدم هذا مِن عملي ..

وهذا وعدي لك فاحذرني فأنا لن أتركَكَ ما حييت ..

وظلّ آدم يُحذّر بنيهِ وأحفادهُ مِنّي.. مرات ومرات ..

وأنا أحاول مرات ومرات ..

أفشلُ حينًا وأنجحُ حينًا ..

حتى أتت الملائكةُ لآدم لتُخبرهُ أن أجله قد حان.. وكان قبلها قد اشتاقَ لطعمِ ثمارِ الجنة.. فجزعت حواء وأمسكت به - وأنا من يُلقي الجزعَ في قلوبِ المؤمنين - فنهرها آدم وقالَ لها :

" إليكِ عنّي فأنا وُجِدتُ قبلك وهذا أمر ربي"

فتركَتهُ.. فقبضهُ ملكُ الموت.. وغسّلَهُ الملائكة.. وكفّنوه.. ثمَ احتفروا لهُ قبرهُ فأقبروه ..و صلّوا عليه ثم قالوا لأبنائه:

"هذه هي سنّتكم في أمواتِكم فاتبعوها "

وكنتُ أراقبُ مِن بعيد آدم وهو يُقبَض ويُدفَن ..

ولا أُنكِر أني افتقدتُ عدوّي اللدود ..

ولكني وجدتُ في أبنائهِ سلواي وأنا أتلاعبُ بهم من حينٍ لآخر ..

وأُخرجهم من إيمانهم بربهم.. وأُزيّن لهم أعمالهم..

ولكني ومع تزايد عدد أبناء آدم، كانَ عليَّ أن أُزيدَ مِن قوتي.. ومِن عُدتي وعتادي ..

كان مازالَ في ذاكرتي بعضُ لمحاتٍ من الطفولة عن تلكَ الحربُ الضروس التي دارات من قبل على هذه الأرض بينَ الملائكةِ والجن وكانت سببًا في صعودي للسماء ..

وكان في عقلي أمرٌ أكبرُ يدور.. "

***

- 72 -

" كنتُ أعلم يا سامريّ أني رغم انتصاراتي على بني آدم إلا أن الكثيرين منهم أقوياء وأن دوري كموسوس لهم ودافعٌ لهم للمعاصي يعتبرُ دورًا ثانويًا لا يؤدي بصراعنا إلى الحسم.. فقط إلى مزيد من الوقت والتطويل.. فأمام كلُ عاصٍ من أبناء آدم كان يبرُز مئات من الموحدين المخلصين لله ممن ليس لي عليهم سلطان ولا أملك عليهم مَضَرة ..

وكان تناسُل أبناء آدم الدائم وتمسُّك أكثرهم بتعاليم آدم عقبةً أساسية في سبيلي؛ حيثُ أني رغم جمعي لبعض الحلفاء بجواري مثل الحيات والجن الناجين من حرب الملائكة والجن إلا أن مجرد فكرة أني سأقضي ما بقي لي من الأبدية في رسم الخطط ومحاولات الإغواء، كان يدفعني إلى اليأس والإحباط ..

وخصوصًا في وجود ربٍ غفور يقبل توبة التائبين.. ويجعل من كل محاولاتي مجرد عبث مستمر بلا نهاية ..

لذا كان لدي خاطرٌ دائم بأني يجبُ أن أنقل هذه الصراعات إلى مواجهة أكثر خطورة.. إلى حربٍ شاملة أقضي بها على كل أبناءِ آدم وأفنيهم وبهذا أقضي على فكرة وجود الخليفة التي أرادها الله فتصبحُ الأرض مُلكًا لي

وتنتصرُ إرادتي على إرادة الخالق؛ وبهذا يكتمل نصري وتنتهي مُعاناتي الدائمة المستمرة كدورانِ الأرض الذي لا ينتهي ..

عشراتُ من السنواتِ مرت.. مئات.. ألوف..

والفكرةُ في عقلي تختمر ..

وتُلحُّ عليَّ..

وتظهرُ مِن حينٍ لآخر، ولكن تمنعها الظروفُ التي لا تواتي بما تشتهيهِ نفسي الثائرة بلا توقف ..

ولكن لم يمر الكثير من الوقت حتى ظهرت الفرصة مواتية لفكرتي المجنونة، وكان ذلك بعد مرور الكثير من السنوات بعد "أنوش بن شيث بن آدم"، وقد كان شيث نبي كما كان آدم نبي ..

فبعد موت "أنوش بن شيث" بدأ بنو آدم في الاستماع أكثر لي ولحلفائي وحادوا عن طريق ربهم فامتلأت نفوسهم بالضعفِ وصاروا أكثر قابلية للهزيمة.. فكرتُ حينها أن هذا ليس وقت الوسوسةِ ودعاوي العصيان للخالق..

لا بل هذا هو وقتُ الإبادة..

كان قد بدأ عهد قنين بن أنوش بن شيث بن آدم ..

ولم يكُن من القوة حتى يشكِّل على فكرتي أي خطر ..

لذلك بدأت في رحلةٍ طويلة لجمع كل الجان الذين تفرقوا من أيام الحرب الأولى بعد هزيمتهم على يد جبريل وجيشه فرحلتُ إلى أطرافِ الدنيا وإلى الأراضي المنخفضة والبقع العفنة لكي أجمع الحلفاء والأصدقاء والمحاربين

من بني الجنِ والوحشِ والمردة والغيلان.. وكلّ مخلوقٍ مشوَّهٍ ناقم.. حتى إن جيشي قد حوى الكثيرين من بني آدم الذين ثاروا على تعاليم آدم وبنيه.

وتمردوا على ربهم ووجدوا فيَّ ملاذًا لهم، ووجدوا في جيشي الذي أبنيهِ طموحهم في أن يملكوا العالم ويقضوا على كل بني جنسهم أملًا في مُلكٍ خالد لا يزول – وكنتُ قد وعدتهم بهذا – ...

وبينما أنا أجمعُ الأحلاف وأكوّنُ جيشي العظيم، وصلتني أخبارٌ من أبنائي أن قنينًا بن أنوش قد مات، وأن البشر بعدهُ تفرقوا في كل حدبٍ وصوب.. وصاروا أشتاتًا لا يجمعهم مكان ..

بل وإنهم أيضًا كانوا يتقاتلون فيما بينهم ..

وقد سقطَ منهم الكثيرون بالفعل..

وبالفرحتي بما سمعت ..

هاهم البشرُ الأغبياء يجعلون من مهمةِ إفنائهم أمرًا سهلًا.. إنهم خيرُ عونٍ لي على إفنائهم والقضاءُ النهائي عليهم ..

وبالفعل بدأ جيشي في التحرك وشنّ هجماتٍ متواصلة على جموع البشرِ المتناثرين في أنحاءِ الأرض ..

وقد انتصرتُ في كل المعاركِ وملكتُ الكثيرَ من الأراضي التي كان يسيطرُ عليها البشر..

وتوالت انتصاراتي واحدًا تلو الآخر ..

وبدت النهاية وشيكة ولن يستطيع أحد أن يمنعها.. ولكن ..

كم أكرهُ كلمة لكن هذه.. فـ" لكن " هذه هي لعنةُ حياتي وهي رمزُ انقلاب أموري دائمًا بعد قُرب التمامِ والانتصار والوصولُ إلى غايةِ طموحي..

ولكن...

ظهرُ رجلُ عظيم من أبناء آدم .. من السلالةِ الأصلية لآدم فهو "مهلاييل بن أنوش بن شيث بن آدم"..

فرعٌ أصيل من سلالةِ الأنبياء، وكانَ قائدًا بالفطرة فجمعَ أشتات الإنسِ المتناثرين في أنحاء الأرض، وأعلن نفسهُ ملكًا عليهم وأرسل الرسل لعملِ التحالفات حول الأرض لكي يبني جيشًا واحدًا لمقاومة جيش الظلام.. جيشي..

وبالفعل نجح مهلاييل في جمع بني آدم كلهم تحت لوائهِ..

فوحَّدهم وبنى مدينتين حصينتين ليجمع فيهما من تبقى من البشر فبنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى، وبدأ في جمع جيشهِ وتدريبهِ وبنى حصونًا من الأشجار فكان أول من قطعَ الأشجار وأعلنه الإنس مَلِكًا للأقاليمِ السبعة التي جمع شتاتها فصار لقبه "مهلاييل بن أنوش قاطعُ الأشجار ومَلِكُ الأقاليمِ السبعة"

لكني لم أجفل ..

فقد مضى عهدُ الخوفِ وفات أوانُ التراجع..

فأنا وجيشُ الظلام لم نذق طعمَ الهزيمةِ مِن قبل ويمكنا أن نحقق انتصارًا آخر وأخيرًا..

وبالفعل توجهتُ وجيشي العرمرم من الجنِ والإنسِ والغيلانِ والمردة والحيّات ومخلوقاتِ الظلامِ نحو بابل والسوس الأقصى، وحاصرتُ

المدنتين حصارًا طويلًا، ولكن لم يسفر حصاري لهما عن شيئًا؛ فقد كانتا محصنتين غاية التحصين وقد أنهكَ هذا جيشي..

كما أن مهلاييل كان قد أعدَّ أسلحةً لم نكُن نعلمُ عنها شيئًا من قبل تمكِّنهُ من قذف النارِ والصخورعلينا من خلفِ الأسوار دون الدخول في اشتباكاتٍ مباشرة؛ فصارت الخسائر في جيشي أكبر مِن أن تُحتَمل.. ولكني أصررتُ على الانتصار..

أمرتُ جيشي باقتحام الأبواب الضخمة المُحصنة مهما كانت الخسائر.. فتقدمت المردة ومن خلفهم الغيلان.. وقلبُ الجيش بأكمله خلفهم نحو الأبواب.. كنتُ أعتمدُ على الكثرةِ العددية غيرُ عابئ بما أفقدهُ من جنودي الأوفياء؛ فما هم إلا وسيلة لتحقيق هدفي الأسمى في القضاء على بني آدم ..

وبالفعل كادت الأبواب تسقطُ أمام ضربات الغيلان القوية.. وبدا النصرُ وشيكًا.. لكن................"

ضحكاتٌ جنونية انطلقت من فم عزازيلُ وهو يكملُ ساخرًا من نفسهِ بمرارة:

" إنها لكن اللعينة ثانيةً ...

التفَّ جيشُ مهلاييل حول جيشي عبر ممراتٍ سرية داخل الحصن بينما أنا وجيشي منهمكون في تحطيم الأبواب؛ فلم نلاحظ أننا لم نعُد نلقي مقاومة تُذكَر من فوق أسوار الحصن.. وحاصر جيشُ مهلاييل جيشي وانقضّوا عليه لتبدأ حربٌ من أشرسِ ما يكون ولا أظنُ أن البشرية قد ترى أشرس منها يومًا ما..

كان جيشي يفوقُ عدد جيش ملك الأقاليم السبعة مئات المرات، ولكن جيشه كان يملك ما لا يملكه جيشي: الإيمان ..

نعم يا سامري.. فبرغمِ كل ما أنجزتُ مِن انتصاراتٍ على بني آدم ظل الإيمان هو أمضى أسلحةِ الإنسان في وجهي.. وأمام الإيمان أنا لا شيء ..

كان جيش مهلاييل يقاتلُ في شجاعةٍ مذهلة.. وببسالةٍ لم أرَ مثلها.. فبالنسبةِ لجيش مهلاييل كانت معركةُ النهاية حيثُ لا يوجد بعدها ما يمكن أن يخسروه.. كانوا لا يخشون الموت بل إني أظنُ أن الموت هو من كان يخشاهم ..

وأمام عيني الذاهلة رأيتُ جيشي يسقط وينهار وينتهي ومعه تنتهي أحلامي بإفناءِ بني البشر والقضاء على ذُرّية آدم.. ولدهشتي رأيتُ كل عناصرِ الطبيعةِ تقاتلُ معهم وكأن كلّ قوى الخيرِ اتحدت لتهزم جيشَ الظلام.. جيشي..

فثارت العواصف وضربت الأعاصير وانقضَّت الطيور على جنودي من الجن.. حتى إن الجن المؤمن قد شاركَ في جيشِ مهلاييل ملكُ الأقاليم السبعة وهبّوا لنصرة الخير ..

لم يمرّ وقت طويل حتى ظهر للعيان أن جيشي ينهزم.. يُقتَل ويُأسَر ويلوذُ بالفرار أمام مهلاييل وجيشهِ المؤمن ..

حتى إني نفسي كِدتُ أن أموت أمام ضربات مهلاييل، ولولا وعدُ اللهِ لي بأني مِنَ المُنظَرين لكنت قُضِيتُ في تلك المعركةِ الرهيبة ..

وانسحب من تبقَّى من جيشي بلا نظام.. فقط فرار من أجل الحياة.. فرارٌ ممزق كأحلامي التي تمزقت بضربات سيف مهلاييل بن قنين بن أنوش بن شيث بن آدم ..

وطارد جيش مهلاييل جنودي المشتتين في كل صوب حتى بلغنا نهايةَ الأرضِ حينها ووصلنا إلى البحر.. ولم يكونوا يعرفون السُفن في وقتها.. فكان هذا هو طوقُ النجاةِ الوحيد لي ولمن تبقى من جيشي المدحور.. فانطلقنا إلى البحر ومنا من يسبح ومن يغوص ومن يطير فاتجهنا صوب البقعِ غير المأهولة من الجزرِ البعيدة في هذا البرمود الذي تقف عليهِ يا سامري، وقد علمتُ بشكلٍ نهائي ومؤكد أني لستُ بمنتصرٍ على بني آدم في المواجهاتِ المباشرة ..

على الأقل مادام الإيمان مازال بين صدورهم.. وأني لكي أنتصر عليهم عليَّ أن أُخرّب نفوسهم.. وأطردُ الإيمانَ من قلوبِهم وأشغلهم عن ربِّهم بكل السُّبُل قبل أن أحاول ثانيةً..

والأهمُ من هذا كلهُ.. أن يكونَ لي حليفٌ قويّ من بني البشر يدعمُني ويكون يدي بينهم ولساني، فيبُثّ في قلوبِهم الضعف والكُفر فهيئهُم للمعركةِ النهائيةِ الأخيرة والتي ليس بعدها معركة.. فتكونُ الغلبةُ لجيشِ الظلام.. جيشي.. جيشنا يا سامري.. أفهمت ..

انظر يا سامري.. انظر.. ها أنا قد بنيتُ مملكتي مُستخدمًا كلُ إمكانيات الجن البنّائين والغوّاصين وها هي الحيَّاتُ تحرسُ مُلكي والمردةُ والغيلان قادةُ جيشي.. وأبنائي وحلفائي من الجن الشياطين يخرّبون ما استطاعوا بين بني آدم ولكن.. مازلتُ أحتاجُ حليفي الذي سيكون النصرُ على يديه..



نعم يا سامري ..

فأنا عشتُ آلاف السنين أنتظرُ مولدك..

وها أنا أراك تتخبط ما بينَ الأحداث لا تدري من أنت وما أنت.. ولكني سأخبرُك ..

يا ساميّ أنت فتنةُ الناسِ الأخيرة التي ما مِن نبي مُرسَل إلا وحذَّرَ قومه مِنها.. أنت خطُ دفاعِ جيشِ الظلامِ الأخير وأنت رفيقي وشريكي ودُعامةُ مُلكي.. بدونك أخسرُ كل شيء.. وبك سأملُك كلَّ شيء وأحققُ انتقامي على بني آدم ..

يا سامريّ.. إن وقتنا ينفد.. وعهدي للعجوزِ كان على أن أقصّ لكَ حكايتي لتتعلم وقد فعلت.. وأنت ذاهبٌ الآن ولن أراكَ إلا بعد وقتٍ طويلٍ جدًا حينَ تأتيني بنفسكَ باحثًا عني لتُعلن لي شراكتك وقبولك عهدي لك.. وأنا إذ أقول لكَ الآن الحق.. وما أنا بصادقٍ لأحدٍ إلا لك.. أوصيكَ بأن تتعلم مما سمعتَ مِنّي وألا تغتر فتضيعَ وتضيّعنا معك.. وأعلم أنكَ حاضرُ زمن نبي قد قَرُب وهو نبي بني إسرائيل الذي يظهر في أرض مصر.. فتَلمّس خطاه حتى تجده.. فإن أنت استطعت أن تلحقَ به فعليك بمن معه.. فافسِد بينهم ما استطعت.. وشتِّت خُطاهم بقدر ما تقدر.. فإن أنت غلبت هذا النبي صرتَ أقرب إلى مُلكَكَ وألوهيتكَ التي تنشُد.. وإن لم تستطع فإنكَ حاضرٌ نبي آخر يحملُ لبني إسرائيل عهدًا جديدًا وهو مسيحٌ مُقرب.. وولي آخر الزمان وقائدُ جيشِ النورِ.. وقاتلك..

لا تحاول أن تعترض.. ولا تقاطعني.. فقط اسمع فإن الوقت قد حان لخروجكَ مِن البرمود فانصِت وافهم.. عليكَ بهما يا سامري فإنني لا أظنُ أن اللهَ سيتركُك تفسدُ في قومِ آخر المُرسلين وهو على قيدِ الحياة.. فهو حبيبُ اللهِ..

ومِن أجله خلقَ الدنيا ومِن أجله خلقَ آدم واسمهُ مكتوبٌ على أبوابِ الجنة.. فإن فشلتَ معَ من قبلهِ مِن أنبياء فلا أظنُك تكون مُطلَقَ السراحِ في عهدِ خاتم الأنبياء...

يا سامريّ، هذا آخر عهدي بكَ للآن.. ولنا لقاء..

فاذكرني أنا عزازيل الماضي وإبليسُ الحاضر وشيطانُ المستقبل..

عدو الله.. ورفيقك الأبدي وشريكُ مُلكِكَ القادم.. الوداعُ يا صديقي..

الوداع يا سامريّ .... "

لا انتظر.. أشياء عِدة مازلتُ أجهلها.. لا تذهب.. انتظر

" لقد انتهى الوقت.. عُد يا سامري.. "

انتظر أيها العجوز.. أمهلني قليلًا لأعرف..

" انتهى الوقت وسوف تعود "

.... برق ....رعد ....

أمطارٌ غزيرة .... صخبُ العاصفةِ يخترق أذني من جديد ....

" بإرادتي تذهب لا بإرداة اللعين ..

تمشي وتجول.. لكن لا تسكُن بعد ..



ترى وتسمع.. لكن لا تؤمن بعد ..

لكن تذهب وتعود "

........صوتُ العجوزُ يحيطُ بي ......

"أغلِق عينيك يا ساميّ.. لا تسمع إلا صوتي "

.... يضيعُ كلُ شيء ....

أنا في السرمد من جديد.. أطوفُ.. أطير.. أتوه...

لا أرى الطريق.. مِن أين أذهب..

يظهرُ العجوزُ من بعيد يمدّ يدهُ إليَّ.. يجذبني ..

أفتحُ عيني .

* * *

- 24 -

من أرضِ الظلامِ عُدت ..

من وسطِ الزوابعِ والأعاصيرِ وموجٍ لا يرحم ..

من متاهات الدواماتِ وتداخلاتِ العقلِ والخيالِ والواقعِ والحُلم ..

من اغترابٍ بينَ زمنٍ مَرَّ وزمنٍ لم يأتِ بعد ..

فتحتُ عيني كأني أُولَد مِن جديد..

في صُحبةٍ عجوزٍ صارَ هو مُعلِّمي الذي يكرهُني

وصرتُ أنا تلميذه الذي يكرهه..

تكملةٌ مثالية لحياةٍ مشوَّهةٍ لمخلوقٍ مشوَّهٍ مثلي..

كانت العاصفةُ قد هدأت..

ولكن عاصفة أشد وطأة بداخل عقلي قد بدأت ولم أرَ لها نهايةً قريبة.. كانت الحقائقُ حولَ وجودي وماهية حياتي وهدفي الحقيقي الذي وُجِدت مِن أجله قد تكشَّفت أمامي بغتةً كومضةِ برقٍ صامت لتنير مساحةً كانت مُظلمة بداخلي بظلام الجهلِ وقِلة المعرفة.. لأجدني الآن أكثر ثقةً في أني سأقودُ هذا العالم يومًا ما وسأملكه وسأحقق طموحي الذي كان قد بدا لي

بعيدًا كنجمةٍ في السماء قبل مقابلتي لعزازيل.. وها هو عزازيل يأتي ليربط لي السماء بالأرض فيجعل من كل شيء قريبًا سهل المنال وإن بدا شديد الصعوبة في الوقتِ الحالي ..

كان رجوعي من البرمود.. مِن كهنوم- والتي تعني الجحيم بالعبرانية- كان رجوعًا أسطوريًا مبهرًا كذهابي إليه.. وها أنا مستلقٍ في القارب الصغير وأمامي العجوز أبيضَ العينين وهو مازال شاخصًا نحو السماء متمتمًا بما لا أسمعهُ ..

الآن عرفتُ أن هذا الرجل يملكُ قوةً ما.. وإلا ما استطاع على إجبار كائنٌ لهُ قوةُ عزازيل -والتي لمستها بنفسي- يحترمُ اتفاقهُ معه ويتركُني أرحل في الموعد الذي حددهُ له رغم ما قالهُ عزازيل عن طول انتظاره لمولدي وللقائه معي..

كان العجوز قويًا.. وقوته ذات طابع خاص لا أستطيع أن أفهمه بعد ..

وكما علمني عزازيل قررتُ أن لا أهمل قوة خصمي ولا أستهينُ بها وهذا ما كنت أفعله مع العجوز.. مجردُ هدنة مع من أكره انتظارًا لظروف مواتية لأبدأ رحلتي وحيدًا مِن جديد ..

كانت الشمس قد انقضّت على الليل العاصف فأحالتهُ إلى صباحٍ صحو وبدت الأمواج راكدة تمامًا فطفا المركب على صفحة الماء بلا حراك، مثلما طفا قلبي ساكنًا في شوق إلى أرضٍ جديدة وقد بدت رحلاتي الغريبة كماء العطاشي الذي لا غني عنهُ..

كنتُ أودُ أن أسأل العجوز في لهفة إلى أين المُستقر ونحنُ ثابتان على سطح الماء إلا من حركة طفيفة لا تكاد تُلحَظ ..

رفعتُ نظري إليه شاخصًا في صمتٍ؛ فما كان منهُ إلا أن أشار نحو المجهول إلى يساره بلا أي كلمة ..

نظرتُ إلى اتجاهِ إشارتهُ لعلّي أرى شيئًا فلم أرَ.. إلا أنني قرأتُ إشارتهُ على أنها إجابة على سؤالي الذي لم أنطقهُ بعد.. فالتقطت المجدافين الخشبيين وشرعتُ في التجديف موجّهًا المركب نحو ما أشار..

كان الجو يشتدُ في البرودةِ شيئًا بشيء، وأنا مازلتُ في تجديفي المُضني بلا أدنى تعب..

لم أكن أنوي أن أخسر أول تحدٍّ لي مع هذا العجوز بتملل مما يطلبه أو حتى شكوى.. فتحرّكَ المركب في ثبات وقد كان الصمتُ المسيطر على ما بيننا قد أضفى على الرحلةِ الكثيرَ من المهابةِ والتشويق ..

تحركَ الليلُ حثيثًا ومعه الرياحُ الباردة الثلجية.. وكان الضباب يقتربُ مني مُذكِّرًا إياي بضباب البرمود ولم يلبث أن ابتلعني أنا والمركب والعجوز ..

كان الثلجُ يتساقطُ في كل مكانٍ من حولنا، ولم أكن من قبلها أعرف أن الثلج يسقط مِن السماء فوضعتُ الملابس الثقيلة التي أخذتها من السفينة على جسدي المرهق وأنا أنظرُ للعجوزِ متعجبًا من أنه لا يرتدي شيئًا تقريبًا إلا أنه بدا وكأنه قطعةُ من الصخر لا تؤذيها الثلوج المتساقطة من السماءِ بلا كلل ولا توقف..

أخفت الغيوم القمر لتحيل كل شيء حولنا إلى جدارٍ أسود مستفز.. وأخذت الرياحُ تلعب بنا والمركبُ يروح ويأتي بلا توقف.. وبدا وكأنني أدفع أطنانًا من الصخور وأنا أدفعُ بمجدافي في ذلك الماء ثقيل الوطأة والذي بدا وكأنهُ لن ينتهي أبدًا ..

كان صوت الرياح صاحبي الذي يرافقني طوال العمرِ قد أصابني بما يشبهُ الصمم، وقد أحالت الثلوج وجهي إلى قطعةٍ من الثلج..

كنتُ أرتعشُ برغم ملابسي التي هي في الأصل من فرو حيوانٍ لا أعرفه، ولكني كنتُ حريصًا على أن أبدو متماسكًا.. ولكن ..

ذكرتني "لكن" هذه بكلام عزازيل.. فأخذتُ سلواي منه محاولًا نسيان ما أنا فيهِ من مُعاناة وبرد، ولكن أصبحت الرؤية معدومة والأمر يفوق احتمالي..

كنتُ أودّ أن أصرخ بذلك العجوز أن يرحمني وأن يتكلم فيدلني على الطريق وقد بدا هذا البحر الذي لم أعد أراه ممتدًا امتداد الليلِ نفسهُ ولا أرى لهُ نهاية..

كدتُ أهتفُ به:

"أيها العجوزُ الخرِف أنا لا آبه لقوّتك التي لا أدري مصدرها.. فلترحمني الآن وتستقر بي على أرض وإلا فسأقتلك هنا وأقضي التيه وحدي غيرُ مُبالٍ بحياتي أو موتي"

و فجأة...

صطدم مجداف المركبِ بشيء صلب يحملُ بعض الليونة.. وارتجت المركبُ في عُنف وكأن شيئًا ما أوقف المركب بشكلٍ مُفاجئ وعنيف ..

هنا أشار العجوز بوقار.. رافعًا يده إلى السماء.. ثم ببطءٍ أشار إلى ما خلفه..

نحو ما اصطدمنا به.. وسمعتُ صوتهُ الهادئ يطوفُ بعقلي قائلًا:

"توقف.. لقد وصلنا.. "

كنتُ أنتظرُ هذه الكلمات بلهفة ..

فما إن انتهى منها حتى ألقيتُ بالمجدافين في قوة، وأسرعتُ نحو اتجاه إشارته عابرًا المركب طوليًا مارًا بجسدِ العجوز.. وبقفزة واحدة غادرتُ المركب ولدهشتي هبطتُّ على أرضٍ صلبة عليها ما يشبه التراب الخشن ..

لم أكن أرى شيئًا حولي..

كان الضباب والظلام يخفيان معالم كل شيء..

ولكني لم أهتم يكفيني أني على أرض..

وبلا أي انتظار ألقيتُ بنفسي على الأرض ورُحتُ في نومٍ عميق...

.... " قُم يا سامري "...................................

....................................."قُم يا سامريّ" ....

دوى الصوتُ في عقلي يحُثني على الاستيقاظ بإلحاح.. بينما أنا أدورُ في متاهةٍ

لا تنتهي من دوَّارٍ لا يتوقف.. لم يكُن النوم مريحًا كما كنتُ تعودته في جزيرتي..

إلا إنه كان نوم.. وأنا كنتُ بحاجة إلى النوم.. أي نوم.....

" قُم يا سامري"......

استيقظتُ وألفُ مطرقة تدق فوق رأسي.. وكأنني لم أنم من ألف عام..

لسبب ما.. كان ما يحدث لي يجهدني ويزيدُني إرهاقًا وكأني أُصعَّد في السماء..

رفعتُ رأسي في بطء وكان النهار قد أتى.. نهارٌ بارد لا شمس له.. كنتُ أرتجفُ في شدة والبرودةُ تملأ رأسي وتُثقله.. ويدي تتحسس ما يفرشُ الأرض تحتي من ثلج أبيض بارد، وكان الثلج الذي قذفتهُ السماء قد تراص على الأرض في شكل حبيباتٍ خشنة.. غاصت يدي في الثلج الخشِن وعاقت قيامي، ولكني قمتُ بصعوبة بالغة متلحّفًا بملابسي الثقيلة محتضنًا صُرّة المِداد التي التقطتها من المركب الراسي في إهمال على طرف الشط الثلجي بعد أن دسست فيها لفائف الخرائط التي بعثرتها العاصفة في أنحاء القارب..

لم أجد أثرًا للعجوز الذي استيقظت على صوتهِ الذي رنَّ في عقلي صارخًا فيَّ أن أستيقظ..

على الأرضِ رأيتُ آثار أقدامٍ أحسبها له وقد غاصت في الثلج.. تبعتُها في تقصٍ وحرصٍ آمِلًا في أن تأخذني إلى مكانٍ أكثر دفئًا وأقل غموضًا من ذلك الشاطئ الثلجي الضبابي والذي لم أكتشف ملامحه بعد..

كانت خطواتي بطيئة وإرادتي قوية.. وشعرتُ بالجوعِ يملأني وأنا الذي لم أعرف معنى الجوع مِن قبل قَط.. وها أنا أسير وحيدًا مرتعشًا ومعدتي تصرخُ طالبة الطعام والماء.. كان أملي أن أجد العجوز والذي لا أعرف كيف تركني هكذا في البرد والجوعِ والعطش..

زاد من كرهي له أني أحسستُ أنه غيرُ مبالٍ بي.. على عكس الجسَّاسة التي طالما أطعمتني وسقتني، بل وأنقذتني من أكثر من محنة.. وكذلك العملاق الأسمر على السفينة والذي أسعدني تركي له يغرق – ولا أدري سببًا لذلك – حتى هو كان يعتني بي.. وهو من أعطاني تلكَ العصابة التي تخفي عيني المشوهة.. أما ذلك العجوز فتبًّا له.. لا أظنهُ يشعرُ حتى بوجودي..

كانت الأمور – فيما يبدو – تسير نحو الأسوأ بالنسبةِ لي ..

أو هكذا أظُن ..

تابعتُ سيري مرتعشًا مُغضَبًا وأنا عاقدٌ يدي على صدري مُخفيًا كفوفي التي تجمدت بين ملابسي حتى قادني الأثر إلى جبلٍ عالٍ.. توجهتُ بنظري لأعلى.. مُحدثًا نفسي: " كيف صعد العجوز هذا الجبل العالي؟ "

لم أتردد كثيرًا وأكملت مسيرتي لأعلى متتبعًا آثار العجوز الواضحة وأنا ألعن حظي الذي يلقي بي من معتوهٍ لآخر ..

كان الطريقُ طويلًا وبدا وكأنه لن ينتهي ولكني كنتُ أُشجّعُ نفسي قائلًا:

"إن كان العجوز الغبي قد صعد الجبل فحتمًا أنا أستطيع "

انهرتُ مرّاتٍ، وأكل الجوع بطني وجفَّ حلقي وأنا أكور الثلوج وأضعها في فمي رغم برودتها وأقلّبها بلساني وأمتصّها بعمقٍ.. ولكنني أكملت..

كان الليل يقتربُ حثيثًا بلونه الرمادي الكئيب وأنا ألمح قمة الجبل قد باتت واضحة قريبة، فقط يفصلني عنها بعض الدقائق القليلة والكثير جدًّا من الجهد المُضني..

مللت.. وغضبت.. ورغبت في قتل العجوز فور رؤيتي له.. ولكن إيجاده كان يعني لي الدفء والشبع والارتواء..

ودخل الليل.. وغرقت الدنيا في ظلامٍ دامس..

ووصلتُ إلى قمة الجبل ..

قمة جليدية قارصة البرودة ..

يتناثر الثلج من حولي في كل الاتجاهات ويغطي كتفي ورأسي..

أبصرُ فتحة ليست ببعيدة.. تبدو وكأنها كهف..

كهف مُظلم، ولكنه كافٍ ليشجعني على أن أتقدم نحوه حالمًا بكل ما ينقُصني من دفءٍ وشجاعة كانت تلاشت شيئًا فشيئًا مع كل دقيقةٍ مرت عليَّ وأنا في صعودي اليائس باحثًا عن أملٍ في الحياة..

و دخلت .... ووجدتُ ....

"لاشيء ...."

فقط لا شيء ....

واجهتُ خوفي وجوعي وعطشي وصعدتُ جبلًا من أجل لاشيء...

ظُلمة ووحدة وجنون.. وثلوج تتساقط ... وأنا وحدي ..

لماذا أتى بي العجوزُ المجنونُ إلى هنا؟ ..

لماذا أوهمني بآثار قدميه بأنه أعلى الجبل.. لماذا؟؟

أمِن أجل أن أصعد لأموت هنا وحدي..؟!

صرختُ بكل الغضب بداخلي صرخةً مدوية ارتج لها المكان وشعرتُ أن الأرض اهتزت لها..

"أي قدرٍ لعينٍ يحيطُ بي "

"أي مشيئة ملعونة تقذفُ بي من بَرٍّ لبحرٍ لجبلٍ"..

وأنا لا أعلم لأين أمضي ..

خرجتُ للفضاء الثلجي الواسع، يختلطُ عليَّ الوهمُ والحقيقة حتى إنني ما عُدتُ أعرف هل أنا موجود أم أنني محضُ وهمٍ في عقل مخلوقٍ مريض لا سبيلَ له في أن يُشفَى..

"الآن أعرف "

صرختُ وأنا أنظرُ للسماء ساخطًا مليئًا بالكراهيةِ والغضب

" الآن أعرف ....

لو أنك هناك بالأعلى فإني أريدُك أن تعرف أني أعرفُ أنك تكرهني..

وأريدُك أن تعرف أني أكرهك..

فليكُن إذن ما يكون ..

أنا لن أموت هنا.. أتسمعني.. أنا لن أموتَ هنا "

درتُ حول نفسي وأنا أنظر للسماء صارخًا بكل قوة.. وقد بعث الغضبُ في نفسي قوةً جديدة.. قوةً مِن نوعٍ آخر..

نوعٍ أصبحت آلفه..

قوةُ الجنون ..

هرولت في كلِ الأنحاءِ بلا توقّف.. ما بين القمة الجبلية وطرفها المؤدي إلى الهوةِ العميقة بطول الجبلِ الثلجي.. هرولتُ مرات ومرات، أبحث وأفتش، أحاول أن أجد مخرجًا لي من موتي المحقق جوعًا وعطشًا..

مرات ومرات سعيًا بلا أمل.. هرولةٌ مجنونة معاندة لقدرٍ أسود اختاره لي إله لا أؤمنُ بوجودهِ، ولكن أؤمن أنه مُهلكي وأنه يقدرُ عليَّ ولا أقدرُ عليه..

تراصت الذكريات أمام عيني وأنا أفقدُ قوتي شيئًا فشيئًا.. واختلطت الأحداثُ بعضها ببعض في تداخلٍ مقيت حتى لم أعد أشعر بالثلوجِ تحتَ قدمي وبالبرد الذي يأكلُ جسدي.. فقط أشعر أني أتحركُ كالنائم.. أطفو..

أطير.. تحملني الرياحُ الباردة كالريشة وتقذفُ بي كارهة من دفقةِ ريحٍ لأخرى..

نهار.. ليل.. نهار..ليل.. يختلطُ الليل بالنهار فلا أعود أدري الوقت..

قواي تنهار وأشعرُ بها تتبخر وطاقتي تغادرني شيئًا فشيئًا..

تصبحُ الصورةُ ضبابية..

أفقدُ تمييزَ الأشياء ..

الغضبُ يغادرني وكذلكَ كلُ إحساسٍ آخر ..

يَجمُدُ جسدي ويتوقف عن الحركة ..

يجفُ حلقي.. وتتحجرُ شفتاي.. يسكتُ كلَ شيء..

نعم.. أنا أموت .



--

- 25 -

مع كل ثانية تلت سقوطي كان انسحابي إلى الموت قد بدا لي أكثر اقترابًا ووضوحًا.. ومع كل لحظةٍ مرت عليَّ وأنا أفقدُ اتزاني وتغيبُ من عيني الرؤية أدركُ أكثر أني هالكٌ لا محالة..

حينها ذاب كلُ شيء بداخلي.. غابت عني طموحاتي وانهارت آمالي.. وبدت كل الأيام والسنوات التي عشتها متنقِّلًا بين ما لا أعرف، سعيًا إلى ما أظن، بدت كلها سخيفة وغير عقلانية؛ فها أنا أموتُ وحيدًا جائعًا عَطِشًا ولم ينفعني غروري ولا أحلامي ولا حتى المداد الذي يهب الحياة لأجسامٍ غادرتها الحياة، بدت لي حياتي في هذه اللحظات عبثًا لا جدوى منه وأنا لا أدري كم من الوقت مرَّ عليَّ وأنا مُلقى بلا إرادة وبلا وعي وبلا أنيس ..

حاولتُ أن أصرخ بلا جدوى.. أن أستغيثُ رغم علمي بأني فوق هذا الجبل معزولٌ عن عالمٍ لم أختبرهُ بعد.. ولكني حاولت.. ولكن لم أستطع.. فحقيقة الأمر أنا لا أدري هل أنا أموت.. أم أنا قد مِتُّ من زمنٍ طويل ..

وببطءٍ بدأ عالمٌ جديد يتشكَّلُ من حولي.. عالمٌ مرعب من سوادٍ وصراخٍ وعويل.. عالمٌ من نارٍ ودخانٍ وصديد..

عالمٌ من مقتٍ وغضب..

وفجأة وجدتُ نفسي أنتصبُ واقفًا وكأن آلافَ الأيادي ترفعني من يدي.. وأيادٍ أخرى تدفعُني لأتحرك نحو سفحٍ بعيد وقد تبدّل جبلُ الثلجِ من حولي إلى جبلٍ مُفزعٍ من نار.. كلُّ خطوةٍ أخطوها تأكلُ من قدميَّ وتملأُ جسدي ألمًا لم أظنُّ أنه موجودٌ.. ولم أظنُّ أني ملاقيه.. كنتُ على علمٍ أن قلبي قد توقف عن الخفقان.. إلا أني كنتُ أسمعهُ يدق كالرعدِ في صدري وكأنه سوف يخرقني ليقفز من جسدي من فرطِ الخوف..

أخذتْ الأيادي تدفعُني وأنا لا أملكُ حتى الصراخ.. ولا أملكُ لنفسي ضرًا ولا نفعًا.. وبدوتُ مسوقًا كالهائم وأنا من بعيد ألمحُ ألسنةُ النار تتصاعد من عندِ الحافةِ وأشعرُ بنفسي أذوبُ حتى إني شعرتُ أن أعضائي تسيلُ من جسدي.. حاولتُ المقاومة ولا جدوى.. حاولتُ التوقف ولم أكن أملكُ أن أقف.. حاولتُ الاستدارة لأرى من ذا يدفعُني ولكن لم أستطع ..

ووقفتُ على الحافةِ وقلبي قد صار في حلقي وعيني غيرُ المُبصرةِ ترى ولم تكُن من قبلِ ترى.. فيا شؤم ما تراه الآن.. ساد الصمتُ لحظة.. ودفعةٌ أخيرة.. وهويتُ في النيرانِ وصراخي يملأُ عقلي دون أن يبلغُ حلقي ..

"ماذا يجري لي..؟ ماذا يحدث..؟ أين أنا؟؟ من ذا ينقذني..؟

فيدوي صوتٌ هادرٌ من فوقي

" اليومُ لا تُظلَمُ نفسُ شيئًا.. ولا تُجزوَن إلا ما كُنتم تعملون "

وأهوى إلى عُمق النار الأسود.. ولم أكن قبلها أعلم أن للنارِ قلبًا أسود .....

و لا أمل لي.. ولا مُنقذ ولا سبيلَ للخلاص

....

"ليسَ بعد يا عدو الله ..

لم يَحِن موعدك بعد ..

ليسَ بعد ..

ليسَ بعد "

دوي الصوتُ من حولي فبدا مُنيرًا طاهرًا.. وصار يحملني الصوتُ لأعلى فأطفو.. أطير..

وها أنا في أرضِ الظلامِ والموت ..

بين الصُراخِ والعويل..

وفي جبلِ النارِ حيث مثواي الذي أعرف أني سأمكُث فيهِ خالدًا أبدًا ..

تتلقفتني يد.. ويدوي صوت ..

يدٌ أعرفها وصوتٌ أكرهه.. ولكني صرتُ الآن أحبه ..

نعم إنه العجوز..

ها هو يأتي إليَّ طائرًا مهيبًا تحيطُه الأنوار.. عاقدًا رجليه وعليهما ارتكزت عصاه.. بدا وجهه النحيف محبَّبًا وبدوتُ في شوقٍ إليه..

رغِبتُ أن أسبَّهُ أو أسأله أو أن أنقضّ عليهِ وأنا في سقوطي اللانهائي نحو الموت والنيران، إلا أني لم أستطع.. بدا الأمر وكأني في كابوسٍ شديد الوطأة حيث لا يستطيعُ المرء أن يتكلم أو أن يصرخ؛ فيبدو أقربَ إلى المفعولِ به منهُ إلى الفاعل، وكأن ما يحياه هو ليسَ حُلمه هو بل هو حُلمٌ أُجبِرَ على الدخول فيهِ ومعايشتهِ على غير رغبة منه ..

وبسرعة تبدلت رغباتي وأنا أرى العجوز قادمًا من بعيد، ومع كل مسافةٍ يقتربُ فيها منّي تتبدلُ الصورةُ من حولهِ ليضُمّنا السرمدُ المُحبب إلى نفسي من جديد..

وتتبدلُ عذاباتي أملًا ورغبةً في الحياة ..

اقتربَ العجوزُ منّي حتى أحسستُ بلفح أنفاسهُ على وجهي ودُرتُ معه في دائرة من نغمٍ وألوانٍ وضوءٍ أبيض وصوتهُ يسربلُ جسدي فيعيدُ إلى جسدي الذائب تماسكهُ ويلُفني برحمته فيزولُ من جسدي الألم ويحلُ محل الخوف الأمن

ومحل الموت الحياة وكلماتهُ تنسابُ إلى عقلي فأقبلُها وأفهمها بلا عناء وقد اشتقتُ إليها وكأني لم أبغضُها من قبل قَط..

" أنت لا تموت يا سامريّ..

بل أنت تحيا..

ترى وتسمع وتُحس وتشعُر

وتمرُ بما لم يمرُ به بشر قَط..

فقط لتعلم ولتفهم ولتختار وأنت مُدركٌ لما تختار ..

فسنين الانتظارُ تُنسَى يا سامريّ..

وطولُ العمرِ يجعلُ الخبراتُ تُنسي بعضُها بعضًا ..

وأنت مُنظَر ولذا يجب أن تعلم..

وكما عَلِمَ رفيقك إبليس اللعين وكفر من بعدِ ما رأى وسمعَ وعاش في رحمةِ ربه في ملكوت السماء فسقطَ في المكتوب ..

كان عليك أن تعلم وترى قبل أن تختار وتكفر فتسقط في المكتوب..

فما ظننتهُ أنت جوعٌ وعطش..

كان طهارةً وسمو ..

فمِن الصوم تبدأ الارتقاء وتزيد حساسيتك لما يدورُ حولك وما ظننته موتًا كان سفرًا في أرضِ البرزخِ لتعلم كيف يكون انتظارك لمصيرك الأبدي في النار مفزعًا ومعذّبًا، وكلَ ما رأيت ليسَ من عذابِ اللهِ من شيء ..

بل هو كمثلِ قطرة ماءٍ في سيلِ مطرٍ غزير..

فإن كنتَ تعقل.. آمنت واخترت طريقَ ربك..

أما إذا ظللتَ على ما أنت فيهِ مِن العناد فها أنت علمت.. ورأيت..

ولعلك الآن صدَّقت يا سامريّ أن وعدَ اللهِ حقٌّ..

إن الله لا يظلم الناسَ شيئًا، ولكن الناسَ أنفسَهُم يظلمون "

سبحتُ مع العجوزِ ممتنًا في السرمد الذي ضمّنا معًا وانسابت كلماته حنونة وصارمة ونهائية..

ومع كلماته عرفتُ أني في مكانٍ ما..

ما بينَ الموتِ والحياة ..

وأني لا أملك لنفسي شيئًا إلا أن يسمحَ لي هذا العجوز..

غاب في غُمرةِ ما يحدث عن نفسي كلُّ إحساسٍ بالجوعِ والعطش..

وحلَّ محلهُ فضولُ غامر..

فأنا أعلم أن العجوز دائمًا ما يظهر لسبب..

ورغمَ صمتهُ الذي طال – ربما على وحدي – إلا أني كنتُ متأكدًا أنه لن يلبث أن يتكلم ..

" أعرفُ أنك تريدُ أن تعلم..

وستعلم..

ولكن كي تعلم يجبُ أن تدع كفركَ جانبًا ..

فها هنا أنا أحدثُك بالحق والحقُ أقول وباطلُك وحقي لا يجتمعان"

لم أكن أملكُ مِن أمري شيئًا..

ولا حتى حقَ القبول أو الرفض ..

وأمام كلماته الواضحة استسلم عقلي الرافضُ وانصاع لكلماته النورانية فشعرتُ بنفسي الجزِعة تهدأ ..

وبقلبي الثائر يرضى..

وكما تعبث الدوامةُ بورقةِ الشجر، دار عقلي دورةً ناعمة وانساب مع سيل كلمات العجوز الدافئة وبدأت رحلةٌ أخرى.

* * *

- 26 -

" ورسُلًا قد قصصناهم عليكَ مِن قبل.. ورُسلًا لم نقصصهُم عليك "

....

"اسمي حارم بن ازر بن شذر بن خازن بن طام بن هام بن شيبة بن زاد بن آزاد بن حارم بن صافور...

جدي الأكبر آزاد بن حارم بن صافور حامل الصحائف وأحد أتباعُ نبي اللهِ إبراهيم الخليل الناجي من النار..

أنا من سلالةٍ ملكية من زمنِ الملوكِ الزاهدين فنحنُ نحكمُ ولا نملك..

من آلافِ السنين حُمِّلنا رسالة جدنا الأكبر آزاد حين قصَّ النبي إبراهيم على أتباعه قصّتك وحذّرهم منك وأمرهم أن يحذِّروا أبناءهم حتى يحين موعدك وتبدأ فتنتك.. فذكر منهم من ذَكر.. ونسي منهم من نسي..

أما جدي الأكبر فقد اتخذَ الأمر على أنه علامةٌ مِن عند اللهِ الواحد تُرشدهُ لما يجبُ أن يفعل..

فكتب عن النبي إبراهيم ما قالهُ فيك وسارَ في الأرض حاملًا الصحائف تاركًا المُلك لصاحبِ الملكوت، جاعلًا منك قضيته الأبدية هو وأبناؤه على مرِّ العصور..

نحنُ أولياءُ اللهِ وخدمَ رسالته ونحنُ المُحذرين منك مَن نسي.. فأنت وسلالتي أعداءٌ مِن قبل أن توجَد ومن قبل أن تعلم ما سوف تكونُ عليه.. فأنا أكرهُك لأنك أنت.. وأنت ستكرهُني لأني أنا فلا فضل لي ولا ذنب في كرهي لك، ولا فضلَ لكَ ولا ذنب فإنهُ المكتوب ..

نحنُ طرفا العصا، نتوحدُ في الأمر ولا نلتقي أبدًا؛ فأنا أبغي هلكتك.. ولا أقدرَ عليك وأنت ستبغي هلكتي وما أنت على بقادرٍ..

اعلم يا سامريّ أن الدنيا ذاهبة بلا عودة، وأن الناسَ موات وإن حَيْوا السنين الطويلات وأن الحقَ ما قاله اللهَ على ألسنةِ أنبيائه ورُسلِه وأن الساعةَ أتيةً لا ريب فيها تتأخر لموعدٍ قريبٍ؛ فما الزمنُ بمقصيكَ عنها بل هو مقرّبك منها في كل لحظةٍ لحظة..

ولقد أراكَ اللهُ من عجائب قدرته ما أراك لكي تسلك طريقَ الحق، وما أنت بسالكه، وما اللهُ بدافعك إلى طريق الشرّ، ولكنك سائرٌ إليه، وما كان اللهُ ليضلك إلا إن أنت شئتَ أن تضلّ نفسك والله لا يهدي القومَ الكافرين ..

فإنما اللهُ يرى عنك ما أنت عنهُ ببعيد ويعرف عنك ما أنت جاهله وأعلمَ أن الله قد كتبَ عليكَ ما أنت فيهِ لأنه نظرَ في قلبكَ فعَلِمَ ما سوف تكون..

واعلم أن باب التوبةِ مفتوحٌ لا تغلقهُ الذنوب وأن باب الجنان ينادي التوابين

وأن النار مخلوقةٌ منذُ خُلِقت الدنيا، وأنها تكرهُ المُكذبين وتحبُ أن تُعذّبهم..

وأن خيرَ ما بعثَ اللهُ به أنبياءه هي كلمةٌ سواءٌ بينهم لا خلافَ فيها وهي:

" لا إله إلا الله ".. من قالها سَلِم وأسلَم وغفرَ اللهُ له بها ما قد سَلف واللهُ يُحبُ المستغفرين..

واعلم أن اللهَ إن كرهَ عبدًا شغلهُ بنفسه وخبأ عنهُ عيوبه وأراه خطأ ما يفعل صوابًا.. فَضَلّ فلا هادٍ لهُ إلا الله..

لذا يا سامري أسألك بحقِ من خلقكَ أن تؤمنَ باللهِ الواحد فلا يحنُ وقتك أبدًا ولا تأتي فتنتك.. وتكونَ ملكًا مُحَكَّمًا مؤيّدًا بروحِ اللهِ وكُتبه..

أسألك وأنا أعلم أنك مُكذّبي، وأعلمُ أن قولَ اللهِ فيكَ حقٌّ وأنكَ يا أعورُ ستكون الكافر المُتآله على اللهِ تُضلُ عبادهُ وتريهُم جنةً ونارًا.. فجنتك نارٌ ونارُكَ جنة.. ومن اتبعكَ ضلَّ ومن عصاكَ نجا.. "

- ....

كان صمتي مُحتّمًا؛ لأن رفضي الواضح لما يقول العجوز ردَّ عني..

كان حليفي الوحيد في هذا العالم الغريب، ولكنه كان أيضًا عدوّي الأبدي الذي لم أعلم بوجوده حتى أخبرني هو عن نفسه وعن عائلتهِ التي أقسمَتْ على محاربتي إلى الأبد..

عدواةً متوارثة.. أبدية.. دوامةٌ لا تنتهي..

وها هو الوريث يصبح منقذي الوحيد ومعلمي !

وكأن عالمي الغريب يأبى إلا أن يزداد غرابة..

بدا العجوز بعينيهِ البيضاوين المعلقتين بالأفق أكثر استيعابًا لموقفي المتعنت ورفضي للكلام أو الرد على سؤاله وكأنه يعلم أني سأختارُ الصمت فأكمل غير عابئ بي أو بموقفي وقد بدا لي أنه الآن أدرك أن عليه أن يؤدي رسالته الموكَّلة إليه فدار حولي دورةً ثم ارتقى لأعلى وهو يكمل وعيني به متعلقة:

"اعلم أنه ما مِن أمةٍ إلا وخلا فيها رسولٌ يُرشدُ بني آدم إلى طريقِ اللهِ الواحد كي يحقق عدالة اللهِ في خلقِه مُتمثلةً في أن تكون السُّبل واضحةً لاختيارٍ جَليّ كي لا يسقط بني آدم في مكتوبٍ ظالم ..

فتصبح أنت ما أنت عليهِ وأنت ما تريد أن تكون.. وأنت ما تفعله ..

لِذا.. بعد الحربِ الكُبرى بين جيشِ النورِ وجيوشِ الظلام، وبعد انتصار مهلاييل بن قينين بن أنوش بن شيث على عدو اللهِ إبليس اللعين وهروب إبليس ومردته وممسوخيه ممن تبعوه من جن وإنسٍ ووحشٍ وحيَّات.. بعدها عاشت الإنسانية في حمى ملك الأقاليم السبعة المؤمن حياةً آمنة مباركة وقد امتد ملك مهلاييل على الأرض ..

حتى جرت سُنّة البشرِ على التبديل والتغيير واختراع طرق يمجّدون بها بعض عظمائهم والذين كانوا يخشون أنهم إذا ما نساهم الناس اندفعوا يتخبطون في السبل لا يدرون أيَّ الطرقِ إلى اللهِ أهدى.. وعلى هذا قرر بني آدم الموجودون في هذا الوقت أن يقيموا تماثيلَ كبيرةً تُمثّل كبراءهم وعظماءهم ممن هدى الله وجعل النصرَ على أيديهم لعصورٍ خلت.. ولمَا كان

أبليس اللعين يدرك من البشر ما لا يدركهُ البشرُ عن أنفسهم؛ فقد وجد أن هذه فرصةٌ سانحة ليعود إلى سيرته الأولى في تضليل البشر وإضعافهم أملًا في فرصةٍ تواتيه لينقضَّ عليهم في ضعفهم قاسمًا ظهورهم ومُهلكًا لهم.. ولما كان إبليس عالمًا بأن الذي هزمه في المرةِ الأولى هو الإيمان – إيمانُ جيش مهلاييل-؛ لذا فقد نفخَ في رغبةِ بني آدم التي ذكرت، جاعلًا منها خطوةً أولى ليضلّ بها الناس محوّلًا احترامهم وتقديرهم لعظمائهم إلى تقديسٍ وإيثارٍ ثم لعبادةٍ وشركٍ بالله الواحد.. ومرت السنين لينجح اللعين ويُضل الناس ليعبدوا الأصنام وينسوا الله الواحد..

حتى وُلِدَ إدريس ..و قد وُلِدَ ببابل وهو من نسل الملوك؛ فهو إدريس بن يارد بن مهلاييل بن أنوش بن قنين بن شيث بن آدم.. واسمه عند العبرانين خنوخ

وعند العربِ إخنوخ.. وهو أول مَن خَطَّ بالقلم وأول من خاطَ الملابسَ ولبسها ..

واختارهُ الله ليكون نبيًا بعد جدهِ "شيث"..

فلما بلغَ الأربعين حدَّثَ الناسَ عن اللهِ الواحد وذكَّرهُم بفضله عليهم وكرَّه لهم عبادة الأحجار وتوقيرها أو حتى استخدام التماثيل للتقرب إلى الله..

فآمن معه من آمن.. وكره كلامه من كره.. فأوحى اللهُ له أن يرحل مع من آمن معه ليخرجَ من أرضِ الكفر.. فأخبر إدريس الناس فقالوا:

"مِن أين لنا بأرضٍ مثلَ بابل "

فردَّ عليهم إدريس:

" نخرجِ فلعلنا إذا ما خرجنا فتحَ اللهُ علينا ببلدٍ غيره ".. وخرج بهم إدريسَ من بابل.. وساروا فإذا هم بالغو مِصر..

وهي بلدٌ يحبه الله أجري فيها نهرًا مِن أنهارِ الجنة واسمه النيل.. وجعل في أرضها الامان وجعل جنودها خيرُ أجنادِ الارض.. وكتب لهم الوفاق إلى يوم الدين فلا يؤثر بهم شقاق ولا فِتن ..

وما إن دخلها إدريس بمن معه حتى رأى نهرُ النيل فسجدَ للهِ شكرًا وسَبَّحَ لله هو ومن معه..

وفي أرضِ مصر علمَّ اللهُ إدريس اثنين وسبعين لسانًا هي كل لغاتِ أهلِ الأرضِ في ذلك الوقت.. وعلمهُ التخطيطَ والسياسة المدنية فجعل يشرعُ في إنشاء المدن حتى بلغَ عدد المدنِ في زمنهِ مئة وثماني وثمانين مدينة.. لكل فرقةٍ مدينة.. وعبدَّ الناسُ الله في هذه المدنِ جميعًا ..

كان إدريس صِدِّيقًا نبيًا.. أحبَّ اللهَ وأحبَّه الله ..

وذات يوم أوحى اللهُ لأدريس

" أني جعلتُ لك في كل يوم مثلَ كل عمل بني آدم ثوابًا ..

وإني رافعُكَ مكانًا عليًا "

فَحمدَ إدريسَ ربَّه.. وقال لنفسهِ :

" إني أحبُ أن أزيد "

ولكن كيف.. وعمرُ ابن آدم وإن طالَ قصير؟

وكانَ لهُ صديقٌ مقرَّبٌ من الملائكة فدعاهُ فأتاه فأخبره بما كان من ربِ العزةِ وما كان من أمر نفسه وسأله:

"هل لكَ أن تصحبني إلى السماء لأقابلَ ملكَ الموتَ فأعرفُ كم بقي مِن عمري فأعرف كم عليَّ أن أزيد ليرضى عليَّ ربي"

فأجابه الملكُ لما يريد وجعلهُ فوقَ جناحه وطارَ به إلى السماء؛ فما إن وصلا إلى السماءِ الرابعة حتى وجدا ملكَ الموتِ هابطًا.. فأوقفه المَلَكُ وقالَ لهُ ما طلبهُ إدريس.. فسألهُ ملكُ الموت :

" وأين إدريس الآن؟ "

فقالَ المَلَكُ:

"ها هنا فوقَ جناحي"

فقال ملكُ الموت:

"سبحان الله.. فو اللهِ إن الله أمرني أن أهبطَ فأقبضَ روحَ إدريسَ في السماءِ الرابعة فأطعت وأنا أتساءل.. وما إن أصعدَ ادريسَ إلى السماء الرابعة حتى قابلتُك ... فانظر إلى صاحبك "

فنظرَ المَلَكُ إلى إدريس فوقَ جناحهِ فإذا به قد قُبِض وما يشعر..

ودُفِنَ إدريسَ بالسماءِ الرابعة.. وصلَّت عليهِ الملائكة.. ورفعهُ ربهُ مكانًا عليًّا.. "

كانت كلمات العجوز تخترقُني وتُعذّبني فلسببٍ ما كان هذا الكلامُ أشدُ وطأةً عليّ من ذي قبل ..

كانت كلماته هذه المرة ترتمي في عقلي صورًا أراها وحياةً أعيشها ومعاناةً ينوءُ بها كاهلي في هذا السرمد العجيب..

وددتُ لو أنه صمت لأرتاح قليلًا، وددتُ لو أن كلماته صارت أقلّ وطأةً أو لو عادت لانسيابها الذي أعدته من قبل.. ولكن هيهات.. كانت الكلمات تأسرني وتشدني وتتلاعبُ بي وتثقلُ كاهلي فأشعرُ بالإعياءِ والتعب.. ولم يكُن من أدنى أمل لي أن أُجبرَ العجوزَ اللعين على السكوت ..

" تتألم يا سامري..؟ ؟؟

وددتُ لو أني قتلتُكَ اليوم وخلّصتُ العالمَ منك وأنا من انتظرك مئتي عام، وها أنت تأتيني في ضعفي.. بعد أن تركتُ أهلي ومالي وولدي باحثًا عنكَ تنفيذًا لأمرٍ علوي جعل مني وأنا عدوّك معلّمًا لكَ ومُهيئًا لك، فكما للنورِ رُسل فللظلامِ رُسل وأنبياء وأنت رسولُ الشرِ يا أعور..

رغمَ مقتي لك لا أملك إلا أن أُطيعَ أمر ربي فيك ..

وما ألمك الذي تشعر بشيءٍ في ألمي الذي أشعر..

وما صبري معكَ بشيء في صبر النبي نوح صاحب الطوفان.. والأبُ الثاني للبشرِ بعدِ آدم.. وهو آخر الرسل الأربع السيرياليين وهم: "آدم وشيث وإدريس ثم نوح"..

فهو نوح بن لأمّك بن متشولح بن إدريس بن يارد بن مهلاييل بن قينيين بن شيث.. سليلُ أسرة النبوة والحكمة والدمُ النقي الخالص.. وهو رجلٌ عاش ألف سنة دعا الناس في تسعمائةٍ وخمسين عامًا منها إلى عبادةِ اللهِ الواحد؛ فلم يؤمن له من قومه في كل هذه السنين إلا ثمانون ..

نعم.. ذلكَ نبيّ اللهِ نوح والذي يبقى ذكرهُ في الدياناتِ جميعًا بل وستحكي عنهُ الأساطيرُ السومرية أيضًا وستذكرهُ باسم "زيوسدورا"..

وكان الناس في زمن نوح قد عكفوا على عبادة خمسة أصنام وقد أسموهم على أسماء عظمائهم (ود ويغوث وسواع ونسر ويعوق) وبدأ الأمر معهم كما بدأ مع من سبقوهم، تقرّبًا لله واعتزازًا بمن سبقوهم في الإيمان.. وكالعادةِ لم يضع إبليس الفرصة ليوقعهم في شَركِ الكُفر..

وقد كانت الأعمار في ذلك الوقت يا سامريّ طويلة مديدة، وطولُ العمرِ كما أخبرتُك يُنسِي وكثرةُ الذكريات تمحو بعضها بعضًا.. فبَدّلَ الناسُ وأشركوا فأرسلَ اللهُ فيهم نوح يدعوهم ويأخذَ بأيديهم فما كان منهم إلا أن كذّبوه

وهجروه وسخروا منه.. حتى كان الشيخُ منهم على فراشِ موته يوصي أبناءه أن لا يتبعوا نوحًا ولا يصدّقوه وهو الصادقُ الأمينُ الحكيم الذي لم يدعوهم إلى شرٍ قَط..

ولم ييأس نوح ولم يتوقف عن دعوتهم فقال لهم:

" استغفروا ربكم.. إنه كانَّ غفّارًا.. يُرسِلُ السماءَ عليكم مِدرارًا.. ويمددكُم بأموالٍ وبنينٍ ويجعل لكُم جناتٍ ويجعل لكُم أنهارا "

فما كان منهم إلا أن سدّوا آذانهُم واستغشوا ثيابهم وغطوا بها وجوههم.. كي لا يرونه ولا يسمعونه..!

وها هو نوح بعد تسعمائةٍ وخمسين عامًا من السخريةِ والإيذاء يناجي ربه في قومه الكافرين ويقولُ مُتأثرًا:

" ربِ إني دعوت أهلي ليلًا ونهارًا.. فلم يُزدهم دعائي إلا فرارًا.. "

" ثم إني دعوتهم جِهارًا.. وأعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسرارًا "

فردَّ عليهِ ربُ العِزةِ وهو بحالِ خلقهِ أعلم.. مواسيًا لهُ ومُخبرًا:

" إنه لا يؤمِن مِن قومِكَ إلا مَن آمن "

فعلِمَ نوحٌ أن هذا هو آخر الطريق فغضِب لربهِ فدعا على قومهِ الكفار العتاة المجرمين:

"ربّ لا تَذَر على الأرضِ مِنَّ الكافرينَ دَيَّارا.. إنكَّ إن تذرهم يُضِلّوا عِبادَك.. ولا يلدوا إلا فاجرًا كَفَّارا "

وهنا حَقت كلمةُ اللهِ على الكافرين..

فإن ربك يا سامريّ يُمهِل الظالمين حتى إذا ما تمكَّن منهُم لا يفلتهم.. وقد صبرَ اللهُ على قومِ نوحٍ ألفَ سنة إلا خمسين..

والآن لا بُدّ من العذابِ الأليم، وعلمَ نوح أن دعوته قد استجابَ اللهُ لها وأن قومه سوف يُعذَّبون في الدنيا قبل أن يُعذَّبوا في الآخرة فحذَّرَ قومه داعيهم للإيمان فما كان منهم إلا أن قالوا:

"ما أنت إلا بشر.. ولقد أكثرتَ في جدالِنا فأتنا ما تعدنا إذا كنت تقدر "

فحزِنَ نوحٌ ورأى اللهُ حزنه فواساه قائلًا:

" فلا تبتئس بما كانوا يفعلون.. واصنع الفُلكَ بأعيُننا ووحينا ولا تُخاطبني في الذين ظلموا فإنهم مُغرَقون "

وكان نوح نجّارًا فأوحي اللهُ له طريقة صنع سفينةً عظيمة فصار نوحٌ ومن آمن معهُ يُشيّدون السفينةَ في وسطِ الصحراء وكلما مرَّ عليهِ ملأٌ من الكافرين سخروا منه وضحكوا ظانيين أن هذه تتمةٌ لجنونِ نوح فها هو وأصحابه يشيّدون سفينةٍ في وسط الرملِ في أرضٍ يجدون فيها ماءَ الشُربِ بشقِ الأنفس؛ فما بالك بماءٍ تطفو عليهِ سفينةٌ بمثل حجم سفينةُ نوح !!!

فما كان من نوحِ إلا أن ردَّ عليهم قائلًا :

"إن تسخروا منّا.. فإنّا نسخرُ مِنكم كما تسخرون "

وكان الله قد أوحى لنوحٍ بعلامةٍ على إثرها يبدأ الطوفان، وعندها كان عليهِ أن يركب ومن آمن معه السفينة وكذلكَ أوحى له أن يجمع في السفينةِ من كل زوجين اثنين من كل خلقٍ خلقهُ الله.. وجعل اللهُ لنوحٍ قدرةً على الحيوان والوحشُ فصارت الحيوانات تتبعهُ أينما ذهب فيشيرُ لهم أن اركبوا السفينةَ فيركبون..

وعندما حانت النهاية، أمرَ اللهُ جنوده من مطر وعيون وبحارٍ وأنهار – ولا يعلم جنود ربكَ إلا هو – أمرهم أن يفيضوا ويغرقوا الأرضَ فلا يتوقفون حتى يُفنون من على الأرضِ جميعًا إلا نوح ومن معه وقال اللهُ لنوح:



" اركبوا فيها.. بِسْمِ اللهِ مجريها ومُرساها "

وثارت الدنيا بسم ربها الجبار على من كفروا وكذبوا وتوارثوا الكُفرَ وأنجى اللهُ الرحيم مَن آمن بفضلِهِ ونعمته.. وسارت الفُلكُ في البحرِ بأمر اللهِ راكبةً الطوفان شاقةً للموجِ العالي كالجبال، بينما قومُ نوحٍ بينَ غريقٍ ومحاولٍ للنجاة.. يتسلّقون الجبال الشامخات هربًا مِن أمرِ الله.. وأينَ الهرب مِن أمر مَن خلقَ الجبال؟؟

فها هو نوحٌ فوقَ السفينةِ يُلقِ آخر نظرةٍ على مدينتهِ الكافرة وهي تذوي وتنتهي ويبتلعها الموجُ شيئًا فشيئًا.. فيلمحُ أبنه – وكان كافرًا – يلمحهُ بعيدًا وسطً الموجِ فيبكي ويناديه أن يركب فيردُ الولدُ العاقُ بتكبرِ أهل المعاصي :

"سآوي إلى جبلٍ يعصمُني ".. رافضًا دعوةَ الإيمان ..

فيردُ نوح :

" اليومَ لا عاصم من أمرِ الله " ويحولُ بينهما الموج الذي يعلو ويعلو ساحقًا كل ما كان في طريقهِ من مظاهرِ الغنى والكُفرِ والعصيان.. ليختفي كل شيء ويغوصُ في عذاب اللهِ ومقتِه..

فيبكي نوحُ بضعفٍ أبويّ أنساهُ أمرَ ربّه في أن لا يخاطبهُ في أمرِ الظالمين فيقول :

" ربي.. إن ابني مِن أهلي.. وإن وعدَكَ الحق.. وأنت أحكمُ الحاكمين.. "

فيردُ ربُ العِزةِ على نبيهِ الصبور مُحذِّرًا ومُنبّهًا ومواسيًا:

" يا نوح.. إنه ليسَ مِن أهلِكَ إنه عملٌ غيرُ صالِح.. فلا تسألنَّ ما ليسَ لكَ به علم.. إني أعِظَكَّ أن تكون من الجاهلين "

ويستغفرُ النبي ربه ويمسحَ دموعه وينظرُ إلى ما حققه اليوم من أملٍ للبشرية متمثّلةً في عددٍ يسيرٍ من المؤمنين باللهِ الواحد ..

كان نوح يتطلعُ إلى الموجِ العالي وإلى ما صارت عليهِ الدنيا وهو يعلمُ أنه قد أصبح أبًا جديدًا للبشرية..

وأينما سترسو به وبمن معه السفينة - التي صارت عالمًا بأسره – أينما ترسو سيكون وطنًا جديدًا لدينِ اللهِ الواحد ..

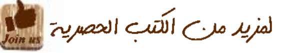
"وقيلَ يا أرضَ ابلعي ماءَكِ.. ويا سماءُ أقلعي.. وغِيضَ الماءُ وقُضيَ الأمر واستوت على الجوديّ.. وقيل بُعدًا للقومِ الظالمين "

وعلى جبل الجوديّ أو كما سيُعرَف فيما بعد بعصور باسمِ "جبل أراراط" وهو أحد الجبالِ المتصلةُ بجبالِ أرمينية.. على هذا الجبل المُبارك رست سفينةُ نوحٍ وهبطَ منها هو ومن معه ليبدأوا حياةً جديدة في أرضٍ جديدة مُطلقين الحيوانات والطيور والزواحف الذين جمعوهم ليذهب كلٌ منهم في جهة ولتبدأ البشريةُ مِن جديد وليكُن فيما بعد من صُلبِ نوحٍ (سام) و(حام) و(يافث)

ومن أصلابهم وُلِدَ العالم الجديد ..

ليصبح سام أبو العربُ وفارس الروم..

وليصبح حام أبو السودان والهند والفرنج والقبط والسند ..



وليصبح يافث أبو الترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج..

لتحق كلمةُ اللهِ في خلقهِ حينَ قال :

"وجعلنا ذُرِّيّتهُ هُم الباقين " ...

هذا هو ربُّكَ يا سامريّ..

ربُّ الحقيقةِ والحق.. فمن ذا أحقُ مِنَ الحقِ أن يُتَّبَعْ؟؟ "

وابتعدَ العجوز.. أو أنا ابتعدت..

وها هو يغيبُ في البُعدِ وكأن النور من حولهِ يبتلعه.. أو كأنهُ هو النورُ ذاته

" حينِ تعودُ حيثُ تركتُك ستجد طعامك وشرابك ومخطوطات.. فكُل..

واشرب.. ثمَ اقرأ واعلم.. ولا تسأل من ذا أطعمك وسقاك.. فهذا من عندِ الله.. الله ربي وربُك يا سامريّ.. تكفُر به ويُطعِمُك.. تعانده ويُبسِط لكَ الرزق.. تجهلهُ فيُعلمُك.. هذا هو ربي.. الحليمُ الكريم.. الغَفورُ الرَّحيم ..

فقُل لي.. من ذا ربّ الكافرين..؟ "

مع آخر كلماتهِ.. ارتج عقلي في قوة.. وذابَ فؤادي في وجلٍ.. وعرفتُ أن الأيام القادمة ستكونُ هي أيام الاختيار .

....

بصرخة ألم وكأني أُصِبتُ بألفِ جُرحٍ، صرختُ مستفيقًا شاهقًا وقد شعرتُ بروحي تقتحمُ حلقي كآلاف الحراب المسنونة وهي تمزّق حلقي بأبشعِ صورة يمكن تخيُلها..

قذفتني شهقتي جالسًا وأنا ألهثُ في قوةٍ وقد تتابعت أنفاسي في قوةٍ وألم وقد اخترق الضوء عيني وكأني لأول مرةٍ أبصر النور فحجبتُ الضوءُ عن عيني وأنا أغلقها في قوة. وبدت أنفاسي المتلاحقة مدوية ذات صدى داخل نفسي وأنا أحاولُ أن أستجمعَ قوّتي مُطمئنًا نفسي أني مازلتُ على قيد الحياة ومؤكِّدًا لنفسي أن ما مررتُ به لم يَكُن أكثر من كابوسٍ مزعج نتيجة للجوعِ

وللعطش ونقصُ الدفء..

ساعدني ضوء الصباح الخفيف- في نهارٍ ثلجي لا شمس في سمائه- في ملء نفسي بالثقة في أني قادرٌ على البقاءِ حيًّا رغم كل شيء..

وقفتُ مترنحًا وأنا أدسَ في فمي كرة من الثلج قبضَتْ عليها كفي وأنا أستندُ على الأرض لأقوم.. ولوكتُ الثلجَ في فمي الذي ورغم مذاقه الغريب إلا أنه كان قادرًا على منحي طعم الحياة والذي افتقدته في غُمرة يأسي ليلة أمس..

مشيتُ بضع خطوات قاصدًا الكهف في الطرفِ الآخر من الجبل وفي نفسي أمنية؛ وهي أن أجد طعامًا وشرابًا ودفئًا – معتمدًا على وعدِ العجوز الذي لم يخلف لي وعدًا قَط – متناسيًا رغبتي في أن أتصور أن ما مرَّ بي كان كابوسًا.. وكأني قد قررت أن آخذ من الكابوس ما ينفعني تاركًا ما يضرني..

كنتُ مازِلتُ أشعر بلفحِ النار على جسدي كما أنني لم أنسَ أن أمسح على وجهي لأتأكد أن وجهي مازالَ في مكانه لم تذُب ملامحه كما كنتُ أشعر..

ولم أستطع أن أمنع زفرة ارتياح خرجت مني مريرة وأنا أشكر حُسن طالعي بأني لم أمكُث أكثر في هذا السرمدِ اللعين – وإن كان حُلمًا– شعرتُ وكأني أعيشهُ وأحسّه وألمسه وأشمّه ..... يااااه ....

كنتُ قد وصلتُ إلى باب الكهف، وكان الضوء الخافت قد ملأه في انعكاساتٍ ملونةٍ جميلة ارتدت عن الأسطحِ الثلجية التي غطت كل شبرٍ فيه فبدا مبهرًا مريحًا وأكثر دفئًا من ليلةِ أمس..

وما إن خطوتُ بعضَ الخطواتِ داخله حتى رأيت لفائفَ عديدة تملأ المكان

ولم تكن موجودة من قبل.. وكذلكَ الكثير من اللحم والسمك والفاكهة

والماء العذب الفرات.. تجاهلتُ كل شيء وقفزتُ نحو الطعام والشراب فتجرعتُ الماء الدافئ وأنا أشعر به يمضي بداخلي شافيًا مُعافيًا، ومع كل قطرة كنتُ أستعيدُ بعضًا من قوتي الضائعة ..

وكوحشٍ كاسر انقضضتُ على الطعام أنهشُ اللحم المشوي وألتقطُ الفاكهة وأبلعُ السمكَ بلا تمييز، وكأن كل ما كان يشغلني هو أن أشعر أن ما ألمسهُ هو طعامٌ حقًّا وليسَ حُلمًا وأني سأحيا.. سأحيا رغم أنف الجميع.. وأني سأمضي في طريقي الذي رسمتهُ لنفسي وقد أثبتت لي الدنيا أني الأجدرُ في البقاء وكان هذا تحفيزًا لي لأن أمضي غيرَ عابئ بما يجري؛ لأني لن يقدر على شيء..

نعم.. هكذا فسرتُ الأمر..

"لو كان أحد مُقدَّرًا عليّ لأذاني.. ولكن لا يقدر عليّ أحد "

فلماذا إذن سأعبأ بما رأيتهُ في كابوسي من رعبٍ وألمٍ.. ولماذا سآخذَ كلامَ العجوزِ على محمل الجدِ؟؟

"لو كانا هذا العجوزُ وربه - الذي يزعم وجوده - بقادرَين عليَّ لما أفلتاني ..!!"

زادَ إحساسي بنفسي وبقوتي، وبدأت نفسي في الهدوءِ تدريجيًّا واستسلمتُ للراحةِ وللاسترخاء بعدَ أن أشعلتُ النار في وسطِ الكهف الواسع بعدَ أن وجدتُ الكثير من ألواحِ الخشب ملقاة في كل مكانٍ بالكهف الرائع المريح ..

وابتسمت في جذل وأنا أفرد ذراعَي خلف رأسي وأنا أستلقي متمتمًا:

"هاهي الطبيعةُ تُهيئ مكانًا ملكيًّا لسيدها كي ينعم بالراحة والسلام ."

* * *

- 27 -

" لمّا خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، قال له:

" انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها "

فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، فرجع إليه، قال:

" وعزّتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها "

فأمر بها فحُفَّت بالمكاره، فقال الله :

"ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها "

فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالمكاره، فرجع إليه فقال:

"وعزّتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد"

قال:

"اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلِها فيها "

فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع إليه فقال:

"وعِزّتك، لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها "

فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال:

"ارجع إليها"

فرجع إليها فقال:

"وعِزّتك، لقد خشيتُ ألّا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها".

....

قلتُ في نفسي: " سأصنعُ جنّتي على الأرض"..

كما يحملُ البحرُ القوارب.. حملتُ كلَّ ما في الكهفِ من لفائف على ظهري..

ربطتها كلها معًا صانعًا منها صرة جلدية كبيرة، فطفت على ظهري مثل مركبٍ يتهادى على سطح البحر وأنا أخطو خطواتٍ بطيئة نحو المجهول ..

كانت قدماي تغوصان في الثلجِ الخشِن وعيني متعلقةٌ بأبعدِ نقطةٍ في الأفقِ يمكن لعينٍ أن تراها ..

كنتُ في طريقي هابطًا من فوقِ الجبل منطلقًا نحو شاطئ البحر متمنيًا أن أجد مركبي الصغير مازال في مكانهِ منذُ تركتهُ من مدةٍ لا أستطيع أن أحصيها ..

مدةٌ قضيتها أقرأ وأتعلم من اللفائف التي تركها لي العجوز والتي تحوي علومًا لم أكُن أُدرك من قبل أنها موجودة ..

علومٌ أعرفُ أنها ستغيّر من وضعي الحالي وستجعل مني سابقًا لزماني – تمامًا كما أخبرني العجوز حين لقيتهُ في السفينة ..

كانت قدرتي على الحفظ والفهم قد تضاعفت فصارت العلومُ تنسابُ إلى عقلي بنعومة حاملةً في طياتها أبوابًا تُفتَح لينبعِث منها المستقبلُ اللمّاع..

وبإصرارٍ عظيم قررتُ أن أواصلَ رحلتي وحدي.. تمامًا كما بدأتُها من قبل بعد حرقي للجزيرة وقد حددتُ أهدافي ولائحتي للوقت بعد أن قرأتُ في اللفائفِ عن الزمن والذي كان مُحدَّدًا بأنبياءٍ قد زعموا أن اللهَ الواحد قد أرسلهمُ للبشرِ لأعلم أن مِن بعد من حكى لي عنهم العجوز وصديقي عزازيل عددًا كبيرًا من أنبياء ورُسلًا لهم حكايات وأساطير ..

لم يكُن يعنيني أن أعرفَ عنهم إلا أن كلمات عزازيل حين نصحني بأن أتعامل بمنطقِ العارفِ بوجود ربٍّ كانت دليلي لأن أخذ العِبرة وأنا أقرأ عن أساليبِ تكذيب البشر للرسلِ رغمَ ما أتوا بهِ من معجزاتٍ وفضائل..

بل وحتى عذابات ...

حتمًا لم تكُن رحلتي بلا فائدة ..

فأنا الآن أعرفُ أن لي عدوًّا..

وأن عدوّي من ذُرّيّةٍ تتناسل حاملةً رسالةً واحدة وطموحًا واحدًا لا يتغير..

ألا وهو تدميري..

كما علمت أن مع هؤلاء لفائف تاريخية تحملُ صفاتي

وصفة أفعالي حين يحينُ وقتي ويَجِدّ الجد..

كانت لائحةُ الوقتِ خاصتي قد ترتبت بفعلِ المعلومات التي أعرفها الآن وطِبقًا لأمالي العريضة ومستقبلي الذي رسمتهُ لنفسي ..

وخطتي التي كنتُ قد رسمتها بعد خروجي من الجزيرة تغيَّرت معالمها لتصبح الآن أوضح وأعمق وأكثرَ جدوى..

وكان على قمة أولوياتي الرجوعُ إلى مسقطِ رأسي باحثًا لي عن تاريخ، فإذا أردتَ أن تبدأ عليكَ أن تبدأ من أول الأمر ..

من حيث بدأ كلُّ شيء ..

من السامرة..

من أورشليم ..

كان طريقي بعيدًا كما عرفت من الخرائط التي حملتها معي من السفينة..

وكما تعلمت من قراءةِ النجوم وهو علِمٌ من العلوم التي تحويها اللفائف..

كنتُ قد رسمتُ خريطتي لأورشليم وفقط تبقى بعضُ التعديلات التي سأجريها على مركبي الصغير ليصير أكثر تحمُّلًا وأكثر ثباتًا في مواجهة أخطار البحر، وكان مرشدي هو عِلمٌ عن أمواجِ البحر وسرعةِ التيارات..

وأيضا عِلمٌ يتحدثُ عن التصميمات الثابتة وكيفية صنع أجسام لها صفات محددة لتتحمل مواقف محددة..

نعم..

لقد أصبحت أكثر معرفةً ....

وأكثر جُهوزية لأسارع خلفَ مصيري..

ولأخذ مكاني في هذا العالم الذي لا يلبث إلا أن يصبح أكثر اتساعًا يومًا تلو الآخر..

عالمًا ينتظرني -أنا - فاتحًا ذراعيه..

ومُقبلًا عليَّ ربما أكثر من إقبالي أنا عليه..

كنتُ أعلم أن الطريق الوعر قد بدأ..

وأنه سوف يكون طريقًا لابد وأن أمشيه نازعًا عن نفسي ميولي الحقيقية مُخفيًا حقيقتي..

متفاعلًا مع أناسٍ لم ألتقِ بالكثيرين منهم، ولا عِلم لي بطباعهم إلا أنهم سوف يكونون جيشي وجنودي وأتباعي..

ومريديني..

ولأفعل هذا سيكون عليَّ أن أتغلغل بداخلهُم جيلًا بعد جيل نافضًا عنهم ولاءهم لإلهٍ ينافسني في حقي المصيري وفي مُلكٍ أنا أحقُ به منه..!!

كانت قائمة أعدائي قد اكتملت..

وكانت معرفتي بالأنبياء والرُّسل قد أفادتني في معرفة كيف سأتعامل مع أول أعدائي..

وهو نبي بني إسرائيل الذي سوف يظهرُ بأرضِ مصر..

ربما حان موعدهُ الآن..

وربما لم يَحِن بعد..

لا أعرف.. ولكنَّي أعرفُ أني لابدُ ملاقيه.. ولابد سأهزمهُ..

وأبدأُ أولى خطواتي نحو الغد الذي أرهبني منه الجميع...

....

وصلتُ إلى المركب الذي احتجزه الثلج في مكانه قابعًا ينتظرُ وصولي..

وفورًا بدأتُ في تقطيعِ الأشجار ووضعِ التجهيزات اللازمة ..

وبينما أنا أعملُ في جدٍّ وقوة، داعبتني الذكرياتُ المتداخلة قاذفةً في عقلي صورًا عديدة..

شعرتُ بالحنينِ لبعضها وبالكرهِ لبعضها..

ووقفتُ أمام بعضها بلا أي ردةِ فعل.. لا أملك حُكمًا عليها..

ولا أملك لها كرهًا ولا حُبًّا..

أمي ..

أبي ..

العاهرة.. تمثال البقرة.. الملك الإله..

الكيانُ الدافئ البارد في ليلة تدمير السامرة..

جزيرتي..

الجسّاسة..

صخور جبريل..

مغيبُ الشمس.. صوتُ الأمواج المتلاطمة.. الحيواناتُ المُشتعلة..

السفينة..

العملاقُ الأسمر..

الطبيب..

قائد السفينة..

طعمُ الخبزِ في أول رفقةٍ إنسانية..

طعم الخوفِ وأنا في كهنوم البرمود البعيد..

السرمد.. العجوز.. البرد.. الموت.. جبلُ النار...

عالمًا متّسعًا تركتُه خلفي مُنطلقًا نحو عالمٍ أكثر اتساعًا..

....

مرَ الوقتُ كما اعتدتُ سريعًا.. أيام تلو أيام.. ليصبحَ الثلج عُشبًا والمياهُ الباردةِ الثلجية مياها دافئة مُنعشة ..

لأول مرةٍ منذُ وقتٍ طويل أسمع صوتَ الطيور..

وأرى العصافيرُ تبني أعشاشها على عجل..

وكما اندفعتُ الشمسُ قاطعةً جبال الغيومِ السوداءِ في سماء البرد لتُعلِنَ صباحاتٍ مشمسة دافئة.. اندفعت الزهور والثمار شاقةً طريقها عبر الموتِ والجفاف والصخورِ الجامدة ..

كنتُ قد انتهيت من كل تجهيزاتي..

ولأولِ مرةٍ أشعر أني أعرفُ ما أفعلُ حقًا..

مع دفعتي القوية، اندفعَ مركبي في طريقه نحو الأفق..

تاركًا خلفي عالمًا كنتُ قد بدأتُ أن أعتاده..

كان مركبي يجري فوقَ الموجِ مُنسابًا لا يعوقهُ شيءٌ..

مركبي الذي صار أكبرَ حجمًا وله شراع يُلَمّ ويُفرَد حسبُ الحاجة ولهُ جوانب خشبية عريضة أعلى قليلًا من مستوى البحر لتحملهُ في الأمواجِ العالية دون أن ينقلب..

وعلى مركبي وبينما الشمسُ ترحلُ تاركةً السماءَ بلا إشارة للحياة التي كانت تملأها.. تأملتُ الأفق ملقيًا نظرةً أخيرة لا تحملُ حنينًا للماضي، ولكن أملًا في المستقبل وإصرارًا لا يثنيه شيءٌ..

كنتُ حريصًا أن لا أنظر خلفي..

وأن لا أذكر شيئًا مما مضى..

وأن أصبح دومًا كيانًا جديدًا مُتجددًا وأن لا أنتهي أبدًا..

وبينما الظلامُ يرمي غطاءَه على ما حولي ليأتي الليل فارشًا نجومهُ في كل شبرٍ في الأفق.. كانت نفسي تزهو وترق.. وقامتي تعلو.. وأحس في نفسي أني قد خُضِتُ كلَ اختباراتي ونجوتُ منها وأنني الآن أملكُ مصيري في يدي..

وأن غدي لابد آتٍ..

وبينما الجزيرةُ تصبحُ نقطةً صغيرة لا تكاد تظهر عاهدتُ نفسي على الانتصار

وقادني زهوي إلى غروري الذي سيصيرُ فيما بعد هو محرّكي الأساسي

ودافعي لأصبح على ما سوف أصبح عليه ..

بثقةٍ بالغة انتصبتُ واقفًا على مقدّمةِ المركب فاردًا ذراعي في وجه الريح، شاعرًا بذرات الهواء تتغلغلُ ذاتي وتختلطُ بكياني..

أنا ابنُ الريح.. وابنُ النار.. وابنُ الغد المُظلم..

أنا السامريّ..

تتسعُ ابتسامتي أكثر..

ولأول مرة أعرفُ معنى رنين الضحك..

تمَّت بحمد الله

* * *



المراجع التي اعتمد عليها المؤلف

القرآن الكريم

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

السيرة النبوية لابن هشام

كتاب الشيطان للعقاد

المسيخ الدجال (مقال مجهول الكاتب على الإنترنت) .



عزيزي القارىء

تقوم عملية القراءة على الوعي بالذات واللغة، ولا يتم ذلك دون ثقافة (قرائية) تحاول أن تساهم دار ليان للنشر فيها، في سبيل التقريب بين المؤلف والقارئ. لذلك لست متلقيًا للإبداع الأدبي والفني فحسب، ولا قارئًا لرموز لغوية ذات أبعاد إنسانية فقط، بل أنت (حلقة الوصل).

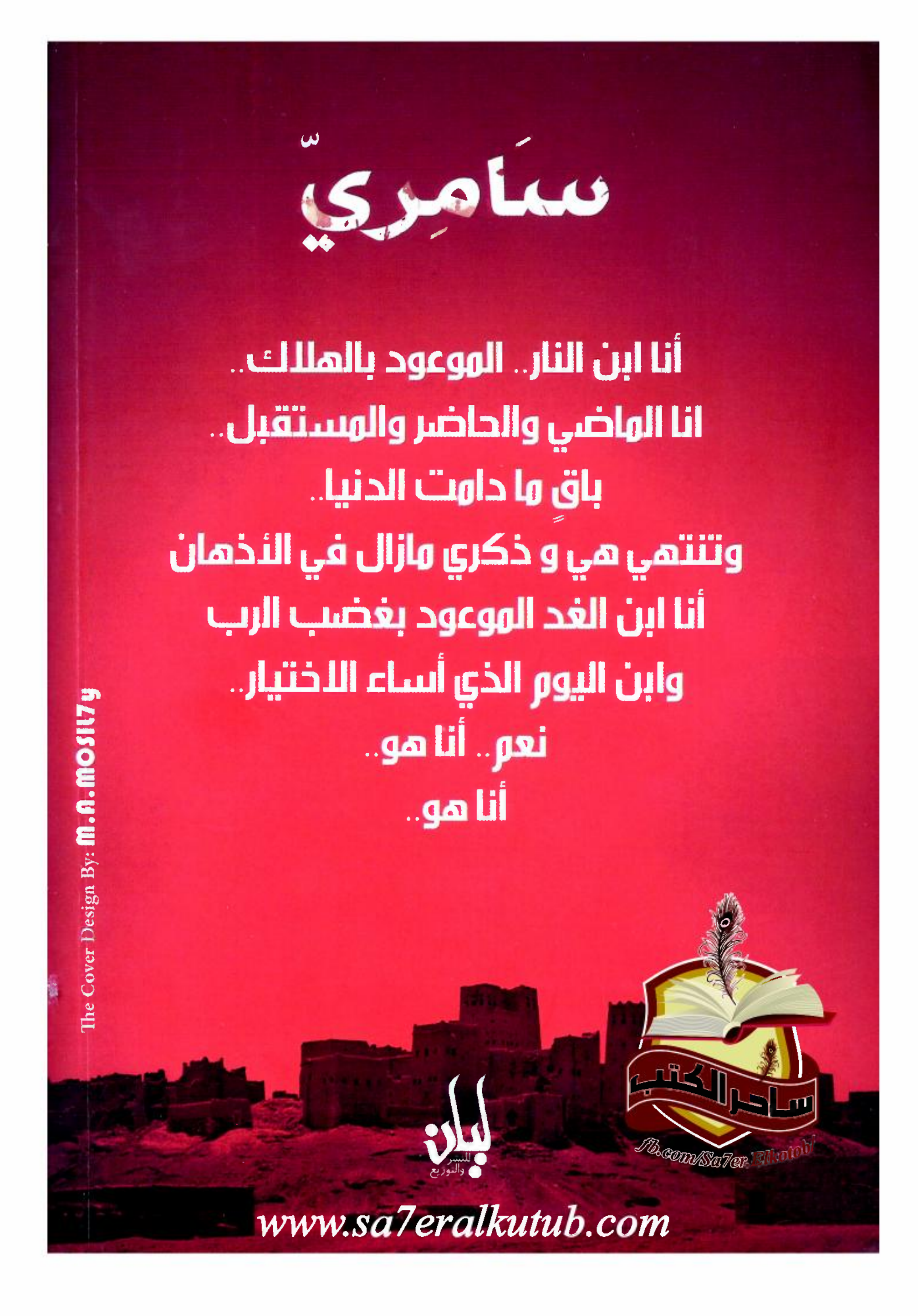
فتنطلق رسالتنا من خطوة المشاركة بين طرفي الإبداع وجناحيه: المؤلف وأنت.

ولا تكتمل عزيزي القارىء العملية الإبداعية والقراءة الصحيحة للإنتاج الفكري– بأبعاده الفنية– دون طيفك كقارىء وأنفاسك كناقد وبحثك عن الإبداع كذوَّاق. ولسنا إلا خطوة الرقي الحضاري الأولى، التي تبحث عن الارتقاء بالإنسان العربي وفكره، وتطوير ملكات المبدع والقارئ عبر تشجيع النصوص الرصينة، ولغتها السليمة الموروثة عن الأجداد والحاملة لأسمى الرسائل الإنسانية.

لنا، وإن فشلنا فعذرنا أننا من أنصار عشق البدايات ودعم أصحاب المواهب الشابة في الخطو نحو النشر في أولى أرهاصتهم الأدبية، ورؤيتنا أن دورنا الرئيسي ينصب على التمهيد المدفعي للكاتب في خطواته الأولى وإقامة العديد من الجسور الصحفية والأدبية والتعريفية بين الكاتب الشاب والوسط الثقافي والقراء ككل.

حلمنا الكبير هو الانتشار الكبير للمواهب الشابة في الأدب المصري والعربي، والباب مفتوح للجميع، وعلى من يرغب في النشر معنا مراسلتنا على النحو التالي:

فتحي المزين: 01282288 056
fathy66666666@yahoo.com
layanpub@yahoo.com- layanpub@gmail.com


سامري
أنا ابن النار.. الموعود بالهلاك..
انا الماضي والحاضر والمستقبل..
باقٍ ما دامت الدنيا..
وتنتهي هي و ذكري مازال في الأذهان
أنا ابن الغد الموعود بغضب الرب
وابن اليوم الذي أساء الاختيار..
نعم.. أنا هو..
أنا هو..
The Cover Design By: m.n.mosli7y
بيان للنشر والتوزيع
ساحر الكتب
fb.com/Sa7er.Elkotob
www.sa7eralkutub.com